



قريش

قريش في العربية

الاعتبارات في اشتقاق التسمية

حد قريش

الحسين بن حيدر

قُرَيْشٌ

قريش في العربية
الاعتبارت في اشتقاق التَّسْمِيَة
حَدُّ قريش

جمعه

السيد الحسين بن حيدر محبوب الهاشمي

المدينة المنورة

قريش في العربية

تقول : قريشٌ وقريشُ ، فإذا أردتَ الحيَّ صرفته ، وإذا أردتَ القبيلة لم تصرفه ، وهو قد جاء في القرآن مصروفاً ، وجاء في الشعر على الوجهين ؛ مصروفاً وغير مصروف (1) ، والنسبة إلى قريش : قرشيّ ، وهو القياس وهو الأكثر ، قالوا : وللشاعر أن يقول قريشيّ إذا اضطر ، وعن الخليل في النادر : قريشيّ (2) .

الاعتبارات في اشتقاقات التسمية

قد كان لاختلافهم في تحديد قريش أثرٌ في بعض المسائل الفقهية كما كان له أثرٌ في بعض النظريات والتحليلات التاريخية .. ثم إنا وجدنا الناس متفاوتون في حصر القرشيين في أحد من رجالات عمود النسب النبوي النبيل ، فأضيق دائرة كانت عند من جعل قصي بن كلاب رجل العمود السادس الجد الجامع لقريش ، وأوسع دائرة كانت لدى من قال هو النضر بن كنانة (3) ،

---

(1) أنظر تحرير التنبيه للنووي ، تحقيق د.فايز الداية ود.محمد الداية ، ط 1 ، دار الفكر المعاصر ، بيروت 279 ، وتاج العروس مادة قريش 4/ 337 ، والتوضيح لابن الملقن 398.

(2) تاج العروس وغيره ، وفي التوضيح لابن الملقن عكس هذا كله ولعله سهو 399 .

(3) بل زعم قوم أن قريش هم أولاد الياس بن مضر ، فيدخل في مسمى قريش سائر بنو كنانة بن خزيمة وبنو أسد بن خزيمة بن مدركة ، وبنو هذيل بن مدركة ، وبنو تميم بن مر بن أد، وبنو ضبة، ومزينة ، ونُسِب هذا القول إلى أبي عمرو بن العلاء وأبي الحسن الأخفش وحماد بن سلمة والقاضي عبيد الله بن حسن وسوار بن عبد الله وأبي الأسود الدؤلي .

وتوسع غيرهم فزعم أن قريشاً كل بني مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، فدخل كل قبائل قيس عيلان ، ونُسِبَ هذا القول لمسعر بن كدام كما نسب إلى حذيفة بن اليمان ، ولا يصح عنه ، وكل ذلك من الأقوال التي لا يعبأ بها ولا يعتد بها لأنها مردودة ولا أحسبها تصح نسبتها لمن ذكر ، أنظر الإمامة العظمى للدميجي صفحة 268 نقلاً عن كتاب أصول الدين لعبد القادر البغدادي ، وانظر النجم الوهاج للدميري 6/ 393 ، وكأن الذي توسَّع إنما نظر إلى تعصب بني مضر لبعضهم البعض ، ولكن هذا طبيعي ونجده في كل بني أب .

أي أنه الرجل الرابع عشر من رجالات العمود الشريف ، وكلا القولين صادق في الذات عند النظر ، وبين القولين أقوال ، ولكن الأسلوب الذي أُتُخذ ليس هو الأسلوب الأمثل في معالجة هذه القضية ، فلو قسّمت القضيّة وفصّلت؛ لكان ثَمّ الرأي ، وما من ريب في أنّ الفهريّ ـ أي الذي ولده فهرٌ ـ هو قرشيّ حقاً حقاً ، وكذا من ولده النضر بن كنانة على التحقيق ، ولا معنى لقول من قال إن الخلاف متطرق لمن ولده مالك بن النضر أو لمن ولده النضر بن كنانة وأنّ من ولده فهر فلا خلاف في قرشيته وأنّ من كان من كنانة غير النضر بن كنانة أنه لا خلاف في عدم كونه من قريش ، لأنّ الخلاف فيه ضعيف ، وسببه عدم تمحض التقريش في باقي أولاد فهر ؛ حاشا غالب بن فهر الذي خلصت فيه التسمية كما خلصت في بعض رجالاتِ العمود ، وكانت أصدق ما تقال حين تقال فيه وفي نسله مع انتفاء الكذب ما لو قيلت في غيره من بني أبيه كما سيأتي بيانه إن شاء الله في سبب التسمية ، ومن سبب الإشكال أيضاً أنه ما من رجلٍ من رجالات العمود إلا وقد أعقب رجلاً مسامت له في المرؤة والسيادة والنبل والشرف ، موافق له في الأخلاق والآراء ، مضارع له في الجِبلَّة والفِطرة ، على حدّ قول الأول:

نسبٌ كأن عليه من شمسِ الضحى ... نوراً ومِن فلقِ الصباح عَمُودَا

ما فيه إلاَّ سيدٌ من سيدٍ ... حاز المكارم والتقى والجودا

فإن سِيرة الأول كَسِيْرَةِ الآخر منهم ، فلم يُدرى أيهم كان المِفْصَلُ ، فاستعان القوم بحديث الصفا ، حيث صعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم الصفا وجعل ينادي في بطون قريش وقبائلها ، فقال بعضهم إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم رتب قريشاً أمامه ، وجعلهم على مراتب ، وأنزلهم مقامات مختلفة ، وهذا يدل على أن ما كل قريش قرابة، وقال آخرون : إن هذا دليلٌ على أن قريشاً كلها على بكرة أبيها ذوي قربى ، إلا أن هؤلاء اختلفوا في الذي هو قريش ، فقالوا : إنّ قريشاً كلها ذوي قرباه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم ، إلا أنّ قسمة الخُمس مثلاً ما دامت أنها كانت موكولةً إلى رأيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم واجتهاده ـ في رأي من يرى ذلك ـ فقد أعطاها لمن كانت له نصرة دون غيرهم ، وقد أدرك الإمام أبي بكر الجصاص من الحنفية رحمه الله تلك المقامات للقرابة ، وتلك الدرجات ، وأدرك ذلك جلُّ علماء السلف الصالح ، فقال الجصاص من بعد ذكره لحديث الصفا الذي كان سببه نزول قول الله تعالى آية سورة الشعراء: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ ومن بعد ذكره لقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم لعليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه : ((اجمع لي بني هاشم)) ، وهم يومئذٍ أربعون رجلاً ، قال : اسم القرابة واقعٌ على هؤلاء كلهم لدعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم إياهم عند نزول قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ فثبت بذلك أن الاسم يتناول الجميع ، فقد تعلق بذوي قربى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم أحكام ثلاثة ، أحدها : استحقاق سهم من الخمس بقوله تعالى : ﴿ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ وهم الفقراء منهم (1)

(1) مذهب الحنفية في سهم قرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الخمس أنه يعطى لفقراء القرابة ولا يستوعبهم جميعاً ليشمل العطاء الميسورين ..

على شروط مختلف فيها ذكرها الفقهاء ، والثاني : تحريم الصدقة عليهم وهم آل عليّ ، وآل العباس ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وولد الحارث بن عبد المطلب ، وهؤلاء هم أهل بيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم ، ولا حظَّ لبني المطلب في هذا الحكم لأنهم ليسوا أهل بيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم ، ولو كانوا من أهل بيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم لكانت بنو أمية من أهل بيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم ومن آله ، ولا خلاف أنهم ليسوا كذلك ، فكذلك بنو المطلب لمساواتهم إياهم في نسبهم من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم ، والثالث : تخصيص الله تعالى لنبيه بإنذار عشيرته الأقربين ، فانتظم بذلك بطون قريش كلها على ما ورد به الأثر في إنذاره إياهم عند نزول الآية (1) .

إذن ، فقد اختلف العلماءُ واللغويون وأهلُ الأخبار والسِيَر في تعيين الذي عرف بقريش أول مرة من عمود نسب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم الذي منه تفرقت قبائلها ، وكان هو الجامع لها ، كما كان اختلافهم في السبب الذي من أجله سميت قريشٌ قريشاً .

(1) أحكام القرآن 3/ 84-85 .

قالوا نحن نرى عمود نسب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم وأنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، ولا نرى في عمود النسب ذكراً لقريش ، غير أننا لم نسمع بمخالف ولا موالف يُنكر أنّ ما بعد كنانة من هذا العمود يكون نسله هو ما يعرف بقريش ، ولم نسمع بمخالفٍ ولا موالفٍ يُنكِر أنّ قريشاً هم قوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم ، وأنها القبيلة التي ولدت هذا الرسول العظيم ، ولم نسمعهم ينكرون أن قريشاً كانوا يسكنون مكة في الجاهلية وصدر الإسلام ، وأن لقريش تلك المآثر التي آثرهم الله بها ، وهم من أصرح ولد عدنان ، وكل ذلك معلوم بالضرورة ومتواتر ومحسوس ، فمن هو الذي يجمع تلك القبائل القرشية والذي يكون هو قريش؟

وفي حقيقة الأمر لقد رأيت عدة أقوال ، كذا قالوا هي أقوال ، بيد أنني لا أسميها أقوالاً وإن كانت هي في الحقيقة أقوال ، وإنما أسميها اعتبارات . وهي اعتبارات لأنها لا ترقى لدرجة اليقينات ، ولكنها أعلى درجة من الوهميات .

لَيْس شَيْءٌ إلاّ وَفيهِ إذَا ... قَابَلَتْهُ عيْنُ البَصيرِ اعتبارُ

فرأيت عدة اعتبارات ذكرها المؤرخون والعلماء ، وأنا سارِدها ومبين لك أشدّها لزوماً بقريش ، وأصدقها على القوم، واعتمدتُ اعتبار القوة والشدة ؛ أما بقية الاعتبارات فهي تحكي ولا شك حال قريش وواقعها ، بيد أن اعتبار القوة والشدة كان هو مبدأ التسمية.

ورأيت أن أبدأ بتلك الاعتبارات التي قيلت في سبب التسمية، ومن ثم أعقبها بذكر رجل العامود الذي تصدق فيها تلك التسمية إن كان واحداً.

وفي هذه الاعتبارات نجدهم إما أرادوا ببعضها رجلاً من رجالات عمود النسب ، فكان ذلك الرجل هو السبب في حصول هذه التسمية للمجموع ، أو أنَّا نجدهم قد أرادوا ببعض هذه الاعتبارات المجموعة والقبيلة لا رجلاً معيَّناً ، فكانت تلك المجموعة برُمّتها هي السبب في حصول التسمية .

الاعتبار الأول

قالوا إنما سُميت قريشٌ قريشاً بسبب تجمُّعِها ، قيل : لتجمعها بمكة حول البيت مِن بعد فُرقةٍ في بادية كنانة ، فقد كانوا أصراماً في كنانة ، إذ إن القَرشَ هو الجمع ، قال السمينُ الحلبيّ : ذلك في بعض كلام العرب (1) . وقال البقاعيّ : المادة كلها للشدة والاختلاط (2) ، يقال : قرشه يقرشه قرشاً ، مِن حَدِّ ضَرَبَ يَضْرِبُه ، ويقرشه مِن حَدِّ نَصَرَ يَنْصُرُ بمعنى قطعه ، وقرشه جمعه ، وتقرش ، دبَقَ ولَزَقَ أي فيه معنى التجمع ، والقروش بالضم جمع قرش بالفتح ، وهو ما يجمع من ههنا وههنا ، وضم بعضه إلى بعض ، وبه فسر قول رؤبة(3):

قد كان يُغنيهم عن الشغوشِ

والخشل من تساقط القروشِ

سمنٌ ومحض ليس بالمغشوشِ

وتقرّش القومُ بمعنى اجتمعوا وتجمّعوا ، وفلانٌ يتقرّش المالَ بمعنى يجمعه ، قال الماورديّ (4) وأبو عمر بن عبد البر (5) وغيرهما : ومنه قول الشاعر (6):

إخوة قرشوا الذنوب علينا ... في حديث من الدهر وقديم

---

(1) 4/ 485 .

(2) نظم الدرر 8/ 534 .

(3) تاج العروس 4/ 337ـ338 ، ولسان العرب11/ 107ـ108 .

(4) اعلام النبوة ، للماوردي ، دار الكتب العلمية 172 .

(5) الإنباه على قبائل الرواة ، للعلامة ابن عبد البر ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط 1 ، دار الكتاب العربي ، بيروت 76 الرسائل كمالية ، 43 الأبياريّ .

(6) قال ابن عبد البر وغيره هو أبو جلدة اليشكري .

قال النسابة ابن فندق البيهقيّ : قيل : سمي قريش من التقرّش وهو التكسّب ، والتقلّب ، والجمع ، والطلب (1) ، والتجمّع ، قيل : هو التجمع حول رجل واحد منهم ، فكانوا كَيَدٍ واحدة على من سواهم ، وقيل : ـ كما سبق ـ : التجمع حوالي البيت بمكة ، وقال أبو البقاء العكبريّ : قريش هو تصغير ترخيم ، لأن القرش الجمع ، والفاعل

قارش ، فقياسه قويرش ، فرُخّم وصُغِّر (2) ، وبهذا القول قال خلقٌ ، والتجمع في مكة يصدق على قريش من وجهين ، أحدهما حين جمعهم قصي بن كلاب حوالي البيت بمكة فلم يتفرقوا ، وثانيهما ، حين جمعهم هاشم بن عبد مناف على التجارة ، والتقرش التجمع والتكسب ، فبنو هاشم أحق قريش بهذه التسمية ، فكانت قريش بفضل تجارتها حاضرة لا يرتحلون عن ديارهم ، حاضري المسجد الحرام غير منفكين عنه ، لغناهم واستغنائهم عما بأيدي الناس ، قال الله تعالى عن الوليد بن المغيرة : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا {11} وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا {12} وَبَنِينَ شُهُودًا {13} وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ إذ لو كان فراق الأولاد ولو زمناً يسيراً شاقاً ، وكان ألزمهم له وأغناهم عن الضرب في الأرض نعمة أخرى ، قال : ﴿ شُهُودًا ﴾ أي حضوراً معه لغناه عن الأسفار لكثرة المال وانتشار الخدم وقوة الأعوان ، قاله البقاعيّ (3) ، وهو

(1) لباب الأنساب والألقاب والأعقاب ، للعلامة علي البيهقي ابن فندق المتوفى عام 565هـ ، تحقيق مهدي الرجائي ، ط مكتبة المرعشي ، قم ، إيران 1/ 191.

(2) إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن ، للعلامة أبو البقاء عبد الله العكبري المتوفى عام 616هـ ، تحقيق إبراهيم عوض ، دار الحديث ، القاهرة ، 2/ 295 .

(3) نظم الدرر 8/ 225 ..

يصدق على قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، فقد كان يدعى مجمعاً ، فهو الذي جمع قريشاً بعد أن كانوا بادية مع كنانة ، قال ياقوت : القريش تصغير القرش ، وهو الجمع من ههنا وههنا ثم يضم بعضه إلى بعض ، وقيل : سميت قريش قريشاً لتقرّشها إلى مكة مِن حواليها حيت غلب عليها قصي بن كلاب (1) .

ولكن ليس كل قبائل قريش يجمعها قصي بن كلاب ، وليس قبائل قريش تفرقت من قصي بن كلاب ، إذن فهذا الاعتبار يصدق على قصي ، لذا كنت قد نعته بقريش الأصغر ، كما أنه يصدق على هاشم ، لأنه هو الذي ألف الإيلاف ، وقد كان قد جمع قريشاً على ماله وطعامه لما أصابهم الجوع ، والمُقَرِّشةُ ، السنة المَحْل الشديدة ، لأن الناس عند المحل يجتمعون ؛ فتنْضم حواشيهم وقواصيهم ، قال الأول : مقَرِّشات الزمن المحذور (2) .

وقصي جمع القبائل ليس ولادةً ، وإنما جمعها عصبيةً وأسكنها مكة ، قال الشاعر(3):

أبوكم قصيٌّ كان يُدعى مُجَمِّعَاً ... به جمعَ اللهُ القبائلَ من فهرِ

والتقريش خاص بقبائل قريش ، والتحبيش خاص بأحلاف قريش ، والتحميس خاص بمن ولدته قريش .

وقال الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب (4):

ولنا فضلها وطيب ثراها ... وبنا سُميتْ قريشٌ قريشاً

وقال آخر :

نحن كنا سكانها من قريش ... وبنا سميتْ قريشٌ قريشاً

---

(1) معجم البلدان 4/ 383 .

(2) تاج العروس ولسان العرب .

(3) هو حذافة بن غانم القرشي العدوي، أو هو مطرود بن كعب الخزاعي، و استعاره الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب في شعره.

(4) المنمق لابن حبيب ، تحقيق خورشيد أحمد فارق ، ط 1 ، عالم الكتب ، بيروت 29 .

ذلك بأن قصي بن حكيم ، وحكيم هو كلاب بن مرة ، كان قد جمع بني النضر بن كنانة واستلَّهم من بني عمومتهم وأسكنهم مكة بعد أن نفى عنها خزاعة ، فقالت بنو بكر من كنانة : لقد تقرَّش بنو جَنْدَلَة ، وجندلة هي أمهم ، فسمي قصي مُجَمِّعاً ، وسمي بنو النضر قريشاً (1) ، قال ابن الكلبيّ في حكاية ابن جرير الطبريّ : إنما قريش جماع نسب ، ليس بأبٍ ولا أمٍ ، ولا حاضن ولا حاضنة (2) ، وفي حكاية ابن سعد : إنما سموا قريشاً لأن بني فهر الثلاثة كان اثنان منهم لأم والآخر لأم أخرى ، فافترقوا فنزلوا مكاناً من تهمة مكة ثم اجتمعوا بعد ذلك ، فقالت بنو بكر : لقد تقرَّش بنو جندلة (3) .

قال المناويّ : كان يقال لقصي القرش (4) ، فبنو قصي هم أمحض قريش ، وأحق قريشاً بقريشٍ ، وقال الماورديّ : وجمعهم من قبلُ ، فهرٌ ، لقتال حسان بن عبد كلال الحميريّ ، حسان تبع (5) .

ومعنى قولهم : تفرقت قبائل قريش من بني فهر بن مالك ، فيقال لهم بنو فهر، أي من فهر هذا انبثتْ قريش وانتشرت ، فهو أبوهم ، منه تفرقوا ، وهم أولاده ، عنده تجمعوا ، قال الحطيئة الشاعر:

وأن الذي أعطيتهم أو منعتهم ... لَكَالتمرِ أو أحلى لِحِلْف بني فهرِ

وكان لقريش الإيلاف ثم هو لبني عبد مناف منهم خاصة ، فقالت العرب : أقرش من المُجَبِّرين ، ويعنون بني عبد مناف (6) .

---

(1) طبقات ابن سعد 1/ 69 ، والمنمق 29، 83، 231 ، وأعلام النبوة 172 .

(2) تاريخ الطبري 1/ 511 .

(3) الطبقات 1/ 57 .

(4) فيض القدير 2/ 501 .

(5) أعلام النبوة 173 .

(6) نشوة الطرب ، لابن سعيد الأندلسي ، تحقيق د.نصرت عبد الرحمن ، ط 1 ، مكتبة الأقصى ، عَمّان 1/ 328 ، جمهرة الأمثال 2/ 133 ، مجمع الأمثال ، للميداني ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت 2/ 127 .

وإنما قال حُذافة بن غانم شعره ذلك لمدح عبد المطلب بن هاشم وابنه أبي لهب بن عبد المطلب ، قال المصعب الزبيريّ : كان سبب هذا المدح أن نفراً من جُذَام خرجوا من مكة ، قد قضوا نسكهم ، ففقدوا صاحباً لهم ، فلقوا حذافة بن غانم فأخذوه ، فانطلقوا به معهم ، فلقوا عبد المطلب بعدما كُفَّ ، ومعه أبو لهب ، فصاح بهم حذافةُ بن غانم العدويّ ، فقال عبد المطلب لأبي لهب : ارجع فأتِ به ، فانطلق أبو لهب ، فكلَّم النفر الجذاميين وقال : قد عرفتم مالي وتجارتي ، وأنا ضامن لصاحبكم ، فأطلقوا هذا الرجل ، فأطلقوه ، فأقبل به إلى عبد المطلب ، فقال : هذا حذافة . فقال عبد المطلب : اسمعني صوتك يا أبا الُمثَلَّم ، فكلمه ، فانطلق به معه (1) .

فمن أجل ذلك مدحه حذافةُ بأبيات منها هذا البيت ، يقول : إن هذه العادة متأصلة فيهم ، فلستُ أنا أول من فعلوا معه هذا الفعل ، حيث جمعوا شمله بأهله وقومه ، وإنما فعل هذا من قبلهم أبوهم قصي الذي جمع الله به شمل قريش ، فهو مجمع .

(1) نسب قريش 375 .

وهذا الاعتبار حكاه ابنُ عبد البر عن محمد بن جبير بن مطعم ، وقال: قال العدويّ: التجمع أصح ما فيه عندنا ، وجعل ابن عبد البر هذا الاعتبار هو المعول عليه (1) ، وقال القرطبيّ في تفسيره : قريش هو النضر ، والتقرش هو الاكتساب ، وتقرشوا أي تجمعوا ، وهو أصح وأثبت (2) ، وهذا الاعتبار حكاه الفخر الرازي قولاً في تفسيره (3)، والنسابة العلويّ القدير ابن عِنبة في عمدة الطالب، وكأنّه مال إليه (4)، وبه قال ابن حِبان في الثقات (5)، والميدانيّ في مجمع الأمثال (6)، وابن قتيبة في غريب الحديث (7) . (8)

الاعتبار الثاني

من التقرش وهو التَّقبُّض والاجتماع ، ولما كانت هذه القبيلة جمعت قبائل سُميت قريشاً ، أي مجموع قبائل ، ولما كان الغالب على قريش التجارة فإنهم كانوا تجاراً دون غيرهم من الأعراب خاطبهم الله تعالى بقوله : ﴿ لإيلاف قريش * إيلافهم ﴾ . وبهذا قال ابن عربي الصوفي (9) . وهذا غير صحيح ، فهم أبناء رجل واحد وليسوا أحلافاً ، إلا ما ورد نفيه من أن يكون من نسله بطريق شرعي كالذي ورد في شعر حسان بن ثابت في زمن النبوة فقط .

الاعتبار الثالث

لأنهم كانوا يتقرشون البياعات فيشترونها ، فقد كانوا يتجرون ويأخذون ويعطون ، من قولهم قد قرش الرجل يقرش إذا اتجر وأخذ وأعطى ، أي أخذ الشيء أولاً فأول (10) .

قال ابن قتيبة في المعاني الكبير (11) : قال القطاميّ:

قوارش بالرماح كأن فيها ... شواطن ينتزعن بها انتزاعاً

قال : إذا التقت الرماحُ سمعتَ لها صوتاً فهي قوارش ، يقال تناولت الشيء وتقرشته سواء ، ومنه سُميتْ قريش قريشاً لتناولها التجارة ، وأنشد:

أحد كيحي في الطعان إذا اقـ ... ـترش القنا وتقعقع الحَجَف

وتقرشهم بالتجارة هنا غير تقرشهم بمعنى تجمعهم في الاعتبار السابق ، حيث تطرقنا لذكر الإيلاف .

قال ابن الملقن : أو من تقرش الشيء إذا أخذه أولاً فأول ، وكذلك قريش يأخذون مَن ناوأهم بحسن تدبر ورفق (12) .

---

(1) الإنباه 45 .

(2) تفسير القرطبي 20/ 138 .

(3) مفاتح الغيب 32/ 100.

(4) عمدة الطالب 135 .

(5) الثقات 1/ 22.

(6) مجمع الأمثال 2/ 127 .

(7) غريب الحديث 1/ 283 .

(8) وانظر هذا الاعتبار : فتح الباري 6/ 534 ، عجالة المبتديء للحازمي 103 ، مسالك الأبصار لابن فضل الله 96 ، المفصل لجواد علي 1/ 401 ، التوضيح لابن الملقن395 ، الخزانة 1/ 98 ، السيرة 1/ 126 ، جمهرة اللغة لابن دريد 2/ 731 ، الإشتقاق 155 ، البلاذري 1/ 50، 83، 231، 232 ، الأنساب للسمعاني 4/ 485 .

(9) تفسير رحمة من الرحمن 4/ 546 .

(10) تاج العروس 4/ 337، 338 ، الإنباه 45 ، فتح الباري 6/ 534 ، فيض القدير للمناوي رقم 2388 .

(11) المعاني الكبير ، للإمام ابن قتيبة الدينوري ، تحقيق عبد الرحمن اليماني ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت 2/ 1098 ، وانظر الأغاني 18/ 80.

(9) التصريح 398 .

الاعتبار الرابع

قالوا : أو لأنَّ النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً فقالوا : تقرَّش في ثوبه ، فغلب عليه ، وقالوا : وقد كان النضر يسمى القرشيّ (1).

الاعتبار الخامس

أو لأن النضر بن كنانة جاء إلى قومه يوماً فقالوا : أنظروا إلى النضر كأنه جمل قريش ، أي شديد ، فلقب به ، أو قالوا: جاء كأنه جمل قرش ، والقرش هو الشديد، فشبه بذلك (2) ، وهذا المعنى هو المعتبر في سبب التسمية كما سيأتيك في القول الأول من الاعتبار السابع ؛ وكما سيأتي في الاعتبار السابع عشر .

الاعتبار السادس

أو لأنهم كانوا يُقَرِّشون أي يفتشون عن الحَاج ـ بالتخفيف جمعُ حاجة ـ فيسدون خَلَّتها ، فمَن كان عارياً كَسَوْه ومن كان محتاجاً أغنوه ، ومن كان مُعْدَماً واسوه ، ومن كان طريداً آووه ، ومن كان خائفاً حموه ، ومن كان ضالاً هدوه ، فكان النضر بن كنانة يفعل ذلك ، وكان بنوه من بعده على سُنَّته يقرشون أهل الموسم فيرفدونهم بما يبلغهم ، فسموا بذلك من فعلهم وقرشهم قريشاً ، وهو قول ينسب إلى معروف بن خربوذ (3) .

---

(1) أنساب الأشراف ، للإمام البلاذري ، تحقيق د.سهيل زكار ود.رياض زركلي ، ط 1 ، دار الفكر ، بيروت 11/ 81 ، تاج العروس 4/ 337 ، الإنباه 44، 45 ، أعلام النبوة 173 ، فتح الباري 6/ 534 ، تاريخ الطبري 1/ 512 ، طبقات ابن سعد 1/ 59 ، فيض القدير 2/ 50 ، التوضيح لابن الملقن 396.

(2) نفس المصادر التي في الهامش السابق .

(3) تاج العروس 4/ 337 ، أعلام النبوة 173 ، الإيضاح لابن الملقن 395 ، تاريخ الطبري 1/ 511 ، البحر المحيط لأبي حيان 7/ 513 ، و الدر المصون للسمين الحلبي 6/ 572 ، و فتح الباري 6/ 534 ، الباجوري على الشنشوري 24 ، فيض القدير2/ 501 ، تفسير الآلوسي 30/ 238ـ239 .

فالتقرش هو التفحص ، والتفتيش ، والطلب ، وأنشدوا قول الشاعر (1):

أيَّها الناطقُ المُقَرِّشُ عنَّا ... عِند عمرو، وهلْ لذاك بقاءُ

روى ابن سعد بسنده عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه قال : لما نزل قصي بن كلاب الحرم وغلب عليه ، فعل أفعالاً جميلةً، فقيل له : القرشيّ، فهو أول من سُمي به (2).

وقال ابن عِنَبَة العلويّ النسابة بناءاً على هذا القول : فكان النضر أو ابنه مالك ، أو فهر يتفحص عن الرجال المحتاجين والمضرين ليعينهم (3) .

وقال العباس بن عبد المطلب يوماً : أنا المُسْقِي بن المسقي بن المسقي بن المسقي بن المسقي ، خمس مرات ، وجده الخامس هو قصي بن كلاب .

وقال الشاعر عنهم (4):

أبلغْ قريشاً إذا ما جئتَها مِنَّا ... أنَّ الشجاعةَ منها والنَّدى خُلق

فخلصنا إلى أن أول من كان يفعل ذلك هو النضر بن كنانة ، وابنه مالك ، وابنه فهر بن مالك ، وحفيدهم قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر لما تغلب على الحرم ، فتمحض ذلك الفعل في قصي، فكان التقريش فيه أمحض من كل وجه ولكل وجه.

الاعتبار السابع

سميت بِمصغر دابة البحر – القِرْش – والتصغير للتعظيم ، وثمت أقوال ضمن هذا الاعتبار.

القول الأول من الاعتبار السابع

لغلبة قريش وقهرهم سائر القبائل كما تغلب دابة البحر – القرش – سائر دوابه ، وهي دابة من دواب البحر عظيمة تعبث بالسفن ولا تطاق إلا بالنار ، تأكل دواب البحر ولا تؤكل ، وتعلو ولا تُعلَى ، وكذلك قريش سادات الناس جاهلية وإسلاماً .

نُسب هذا إلى ابن عباس ، ومحمدِ بن سلام.

وأنشدوا استشهاداً لهذا شعراً فيه برود واضح ، قال في تاج العروس هو للمشمرج الحميريّ (5):

وقريشٌ هي التي تسكن البحر ... وبها سميتْ قريشٌ قريشاً

ونسبوه لتبع وزادوا عليه (6):

(1) قيل : هو الحارث بن حلزة .

(2) الطبقات 1/ 59 .

(3) عمدة الطالب 135 .

(4) البيت في المنمق لابن حبيب 354 .

(5) تاج العروس 4/ 337 .

(6) تاج العروس 6/ 572 .

تأكل الغث والسمين ولا تتـ ... ـرك فيها لذي جناحين ريشاً

هكذا في البلاد حَيُّ قريش ... يأكلون البلاد أكلاً كميشاً

ولهم آخر الزمان نبيٌّ ... يكثر القتل فيهم والخموشاً

ونسبه في نظم الدُرَر(1) للجمحيّ وزاد فيه على البيت الأول الذي ذكره صاحب التاج:

سُلِّطتْ بالعلو في لُجَّةِ البحر على ... سائر الجيوش جيوشا

وهذا الوجه حكاه الفخرُ الرازيّ في تفسيره قولاً وقال : ومعلوم أن قريشاً موصوفون بهذه الصفات لأنها تَلي أمر الأمة ، فإنّ الأئمةَ من قريش (2) .

وجعله ابن عِنبة العلويّ أشهر الأقوال (3) ، وحكاه ابن خالويه قولاً ولم يعزه ، وقال : فلما كانت قريش هامة العرب ورئيستها سميت قريشاً لذلك (4) ، وهو الذي نُعَرِّجُ عليه ونعتبره أصدق الاعتبارات ، وبه قال من أشياخنا كالقاضي العلامة محمد الحافظ ؛ والعلامة أحمدو الشنقيطي وغيرهما . وهو لا يختلف عن الاعتبار الخامس الذي مرَّ آنفاً ، كما أنهما لا يختلفان في الحقيقة عن الاعتبار السابع عشر .

القول الثاني من الاعتبار السابع

زعم القلقشنديُّ أنّ النضر كان في سفينة ، فطلعت عليهم دآبَّةٌ من دوآبِّ البحر يقال لها قريش ، فخافها أهل السفينة ، فرماها بسهم ؛ فقتلها ؛ وقطع رأسها ؛ وحملها معه إلى مكة (5).

القول الثالث من الاعتبار السابع

قال السمعانيّ : وقد قيل : إنما سُميت قريش قريشاً لأنها كانت تجَّاراً تَكسب وتتَّجر وتحترش ، فشبهت بحوت في البحر (6) .

قال ياقوت الحمويّ عن الاعتبار السابع عموماً : وهذا الوجه عندي باردٌ ، والشعر مصنوع جامدٌ ، والذي تركن إليه نفسي أنه إما أن يكون من التجمع أو تكون القبيلة سميت باسم رجل منهم (7) .

---

(1) نظم الدرر 8/ 534 . وانظر الأبيات في لسان العرب مادة ق ر ش ، ومعجم البلدان لياقوت 4/ 383 ، والمصادر الواردة في هذا المبحث .

(2) مفاتح الغيب 32/ 100 .

(3) عمدة الطالب 135 .

(4) تفسير ثلاثين سورة من القرآن 196 ، وأنظر هذا القول في الكشاف للزمخشري 4/ 235 ، زاد المسير لابن الجوزي 9/ 240 ، تاريخ ابن خلدون 2/ 387 ، الزاهر لابن الأنباري 2/ 120 .

(5) نهاية الأرب 356 .

(6) النسب 4/ 485 .

(7) معجم البلدان 4/ 383 ، وهذا الرجل ليس إلاّ رجلاً من رجالات العمود وليس من الأفناء كما سيتضح إن شاء الله .

ويلاحظ مع هذا الاعتبار أن قريش كانوا لقاحاً ، أي لا يدينون للملوك ؛ ولم يملكوا ؛ ولم يصبهم سبيٌ ؛ ولا يؤدون الأتاوة (1) .

الاعتبار الثامن

قال الزبيريّ في نسب قريش : قريش بن بدر بن يخلد بن النضر ، كان دليل بني كنانة في تجارتهم في الجاهلية ، فكان يقال : قدمت عِيْرُ قريش ، فبه سموا قريشاً ، وأبوه بدر بن يخلد صاحب بدر، الموضع الذي لقي فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم قريشاً (2).

من باب إطلاق البعض على الكل ، وهو عندي بعيد ، قال البلاذريّ : قال هشام بن الكلبيّ : ومما وضعه ابن سيف بن عمر بن الوليد بن أبان المنسوب إلى ضبة قال : ولد بدر بن يخلد : قريش بن بدر ، وبه سميت قريش ، كان دليلهم في عيرها ، وليس يعرف أبي هذا وإنما ينتهي إلى بدر.

قال هشام : وقال ابن سيف : إن الماء المعروف ببدر نسب إلى بدر بن يخلد هذا .

قال هشام : وقال أبي محمد بن السائب الكلبيّ : بدر الذي نسب الماء إليه من جهينة ، والوادي يقال له يَلْيَل ، قال : وحكاه لي عن أبي صالح عن ابن عباس (3) .

فهذا الاعتبار ساقط نظراً لسقوط سيف بن عمر الوضَّاع ، وهو من الرواة الدجالين.

الاعتبار التاسع

قيل : لتجرها وتكسبها وضربها في البلاد تبتغي الرزق ، فقد كانوا تجاراً يأكلون من مكاسبهم، فلتلبسهم بالتجارة سموا قريشاً ، قال الزبيديّ في التاج : القرش الكسب كالاقتراش ، وقَرِشَ كعَلِمَ لغةٌ في قَرَشَ كضَرَبَ ، نقله الصاغانيّ ، وجمع القرش القروش ، قال رؤبةُ:

قَرْضِي ، وما جَمَّعْتُ مِن قُرُوشي

---

(1) نهاية الأرب للألوسي 1/ 242 .

(2) نسب قريش 12 ، وانظره في التوضيح لابن الملقن 394 ، وعمدة الطالب 135 ، معجم البلدان 1/ 425 ، الإنباه 44 ، تاريخ الطبري 1/ 511 .

(3) أنساب الأشراف 11/ 80 .

وقيل : إنما يقال تقرش واقترش لأهله ، يقال قرش لأهله وتقرش واقترش وهو يقرش لأهله ويقترش أي يكتسب ، وقرش في معيشته من حد ضرب (1) .

قال الزمخشريّ : قيل ؛ من القرش ؛ وهو الكسب ، لأنهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم في البلاد (2) ، قال البلاذريّ : لقيتُ أعرابياً من كنانة بِالرَّبَذة سنة إحدى وثلاثين ومائتين فسألته عن حِمَار رأيته فقال : هو لي أقرش عليه قوت العيال ، أي أجمعه عليه (3) ، قال رؤبةُ بن العجَّاج:

قد كان يغنيهم عن الشُّغُوشِ

والخَشْلِ مِن تساقط القروشِ

شحمٌ ، ومحضٌ ؛ ليس بالمغشوشِ

وقال أبو جلدة اليشكريّ ، ويشكر من بكر بن وائل:

أخوةٌ قرَّشوا الذنوب علينا ... في حديث مِن عمرنا وقديم

وهذا الاعتبار قريب من الاعتبار الثالث ، وأنت تجد تشابهاً وتداخلاً بين الاعتبارات ، ولعل ذلك ناتج عن الشغف بتكثير الأقوال ، والسمعاني في النسب كأنه جمع هذا الاعتبار إلى الاعتبار السابع ، إذ قال : لأنها كانت تجاراً تكسب وتتجر وتحترش ، فشبهت بحوت في البحر .

وهذا الاعتبار عزاه أبو حيان للفراء ، وهو اختيار ابن جزيّ الكلبيّ الغرناطيّ ، قال ابن الملقن في التوضيح : وفيه نظر ، لأن قريشاً لم يجتمعوا حتى جمعهم قصيُ بن كلاب ولم يجمع إلا ولدَ فهر (4) .

---

(1) تاج العروس 4/ 337 ، لسان العرب مادة ق، ر، ش11/ 108 ، فتح الباري 6/ 534 ، الدر المصون 6/ 572 ، سيرة ابن هشام 1/ 103 .

(2) الكشاف 4/ 235 .

(3) أنساب الأشراف 11/ 80 .

(4) التوضيح 395 ، وأنظر هذا الاعتبار : غريب الحديث لأبي اسحاق الحربي 3/ 1031 ، البحر المحيط 7/ 513 ، تفسير الثعالبي 4/ 443 ، تفسير ابن جزي الكلبي 4/ 218 ، وتفسير ابن عطية 5/ 525 ، والمصادر السابقة.

وليس الأمر مشكلاً كما زعم ابن الملقن ، فقريش قبل قصي كانوا يعرفون ببني النضر بن كنانة ، وكانوا أصراماً في كنانة ، بادية معها ، فلما غلب قصيُ على مكة جمع بني النضر أو قل بني فهر ، فغلب عليهم اسم قريش ، ثم إن هاشم بن عبد مناف سنَّ لقريش الرحلتين.

الاعتبار العاشر

قيل : لأنهم كانوا أهل تجارة ، ليس مثلهم أحد من العرب ، ولم يكونوا أصحاب زرع كما الأنصار في المدينة وثقيف في الطائف ، ولا كانوا أصحاب ضرع كما أهل البادية وهم أغلب العرب ، وذلك من قولهم فلان يتقرَّش المالَ أي يجمعه (1) ، قال ابن خالويه : قريش تصغير قرش ، وهي التجارة ، سموا بذلك لأنهم كانوا تجاراً (2) .

وهو داخل في الذي قبله ، وهو أشبه الاعتبارات بالأول غير أن الأول جمع أنفُس وهذا جمع أموال ، ولعلهم قصدوا من هذا الاعتبار الإشعار بأنهم كانوا مخالفين في نمط معيشتهم لغيرهم من العرب ، فهو يختلف عن الذي قبله لأن ذلك قصد بكونهم تجاراً أنهم يجمعون المال لا كونهم منفردين عن العرب بمزاولة التجارة .

---

(1) لسان العرب11/ 108 ، تاج العروس 4/ 337 ، تاريخ ابن خلدون2/ 387 ، زاد المسير9/ 240 عمدة الطالب135 .

(2) إعراب ثلاثين سورة من القرآن 196 ، وانظر هذا الاعتبار في تفسير الآلوسي 30/ 238-239 .

الاعتبار الحادي عشر

إنما قيل : قريش ؛ لأجل أنها تقرشتْ عن الغارات ، حكاه الطبريّ في تاريخه (1) ، ولا أدري ما وجهه لديه ، ولعله يقصد أنهم تنزّهوا عن الغارات لعدم حاجتهم إليها لأمنهم وغناهم ونمط معيشتهم المغاير لأغلب العرب الذين كان يغلب عليهم النمط البدوي في المعيشة ، أو لعل وجهه ، صرفت عنهم غارات الغازين وكيد الكائدين ، قال في اللسان : تقرش عن الشيء ، تنزَّهَ عنه (2) ، قال في المُنَمَّق : فضّل اللهُ قريشاً على سائر مضر لأنهم كانوا لا يظلمون الجار ولا يغير بعضهم على بعض ، وفضّل اللهُ بني هاشم على قريش لأنهم كانوا أوصلهم للأرحام وأكفهم عن الآثام (3) .

ولقريش نمطان من المعيشة ، فمن كان منها يسكن بطاح مكة ، حوالي الحرم يقال لهم قريش البِطَاح وهؤلاء كانوا حَضَرَاً ، ومن كان منهم يسكن ظاهر مكة ، أي حواليها ، كان يقال لهم قريش الظواهر وهؤلاء كانوا بدواً أو إلى البدو هم أقرب ، وكانوا يغزون على عادة البدو وسُنّتهم ، ويستمرؤون أكلَ الضب وما كان نحوه من الصيد ، على خلاف قريش البطاح ، وكان الظواهر يفخرون على البواطن أي البطاح بالمغازي والغارات ، يفخرون عليهم بظهورهم للعدو ، ولقائهم للمناسر ، وكانوا يسمون قريشاً البطاح بالضبّ ، لأنّ الضب لا يبرح جُحره ، وهم لا يبرحون الحرم (4) لا ينفكون عنه ، وكان البطاح يفخرون على الظواهر بمآثر قصي بن كلاب التي منها سدانة

البيت وسقاية الحجيج ، وببيوتات قريش التي فيها عِزُّ قريش ، قال ضرار بن الخطاب من قريش الظواهر معرّضاً بقريش البطاح (5):

نحن بنو الحربِ العَوان نَشُنُّها ... وبالحربِ سُمِّيْنَا ، فنحن مُحارِبُ

إذا قصرت أسيافُنا كان وصالها ؛ ... خُطانا إلى أعدائنا فنضاربُ

فذلك أَفْنَانَا وأَبْقَى قبائلاً ... سِوانا ؛ تَوَقِّيهِمْ قراعَ الكتائبُ

(1) تاريخ الطبري 1/ 511 .

(2) مادة ق، ر، ش 11/ 107 .

(3) المنمق 21 .

(4) أنساب الأشراف 1/ 40،39، 41 .

(5) ديوانه 46 .

وقال رجل من بني مرة بن عوف ينكر أنهم من قريش إما حقيقة وإما برآءة منهم لكونهم مخالفين له:

ألا لستم منا ولا نحن منكمُ ... برئنا إليكم من لؤي بن غالبِ

أقمنا على دفع الأعادي وأنتمُ ... مقيمون بالبطحاء بين الأخاشبِ

وما كانت الظواهر أشجع من البواطن ، ولا كانت أشرف ولا أنزه ، ومتى كانت الحرب كان الرئيس من البطاح دون الظواهر .

وهذا الاعتبار هو معنى قول الله تعالى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ .

الاعتبار الثاني عشر

قيل : سموا بذلك لمعرفتهم بالطعان ، والتقريش هو وقع الأسنة ، فسموا قريش بتقارش الرماح (1) ، قال أبو عمر المطرز : لأنهم أحذق الناس بالطعان (2) .

يقال : تقارشت الرماحُ أي تداخلت في الحرب ، وتقارش القومُ أي تداخلوا في الحرب ، وكذلك تقرشت الرماح إذا تشاجرت وتداخلت ، ورماح قوارش ، وقد قرشوا بالرماح إذا طعنوا بها ، والقرش الطعن بالرماح ، واقترشت الرمح وتقرشت وتقارشت ، تطاعنوا بها فصكَّ بعضها بعضاً ، واقترشت وقع بعضها على بعض فسمعت لها صوتاً (3) .

قال القطاميّ:

قوارشُ بالرماحِ، كأنَّ فيها ... شواطِنَ ينْتَزعنَ بها انتزاعاً

قال ابن قتيبة في المعاني الكبير : قال : إذا التقت الرماح سمعتَ لها صوتاً فهي قوارش ، يقال : تناولتُ الشيء وتقرشته سواء ، ومنه سميت قريشٌ قريشاً لتناولها التجارة ! ، وأنشد :

أُحِدُّ كَيْحَيَّ في الطعان إذا اقـ ... ـترش القنا وتقعقع الحجف(4)

وقال أبو زيد:

إما تَقَرَّشْ بك السلاحُ، فلا ... أبْكيكَ إلا للدَّلو والمَرَسِ(5)

(1) تفسير ثلاثين سورة لابن خالويه 196 ، فتح الباري 6/ 532 ، نظم الدرر 8/ 534 ، زاد المسير 9/ 240 ، اللباب لابن فندق 1/ 191 .

(2) التوضيح لابن الملقن 397 .

(3) لسان العرب11/ 108 ، تاج العروس4/ 338 .

(4) المعاني الكبير 2/ 1098 ، و البيت في الأغاني 18/ 80 .

(5) لسان العرب 11/ 108 .

وقال الآخر:

ولما دَنَا الراياتُ واقترَشَ القنا ... وطارَ مع القومِ القلوبُ الواجِفُ(1)

وقال الحارث بن ظالم المريّ ناسباً نفسه إلى قريش:

رفعتُ الرمحَ إذ قالوا قريشاً ... وشَبَّهتُ العمائمَ والقبابا

وقومي إنْ سألتَ بنو لؤيٍ ... بمكة، علموا مُضَرَ الضرابا

وقال ضرار بن الخطاب الفهريّ رحمه الله في يوم بدر معرِّضاً بالأنصار في جاهليته ، زاعماً أن المسلمين ما انتصروا ذلك اليوم إلا بسبب الرهط القرشيين الذين معهم ، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم ومن معه من قريش:

هم الطاعنون الخيلَ في كل مَعْرَكٍ ... غداةَ الهياجِ الأطيبونَ الأكاثِرُ

والشعر في ذلك كثير .

الاعتبار الثالث عشر

قيل : هو مِنْ أَقْرَشَتْ الشجةُ إذا صدعت العظمَ ولم تهشمه ، حكاه ابن حجر العسقلانيّ في فتح الباري (2) .

قالوا : المقرِشةُ من الشِّجاجِ التي تصدعُ العظْمَ ولا تهشمه ، يقال : أَقْرَشَتْ الشَّجةُ فهي مقرِشةٌ إذا أحدثت ذلك

بهذه الكيفية (3) .

فلعل مراد من قال بهذا الاعتبار أن قريشاً كانت لا تغير على أحدٍ لعظمها وخطرها ، وأن من تعدى عليها أو كادها فإنها تعاقبه معاقبة السيدُ لفتاه ، والأب لابنه ، والمعلم لتلميذه ، بدون إغارة ولا بغي ولا إفساد ، وكذلك يفعل الشهم صاحب الشكيمة والنخوة والحميّة.

(1) البيت في زاد المسير 9/ 240 .

(2) الفتح 6/ 534 .

(3) لسان العرب مادة ق،ر،ش 11/ 107 .

أو لأن نبأ قريش قد طار في الآفاق وغاص في الأعماق وارتفع إلى الأفلاك ، فخافتها الأمم ، وهابتها القبائل وعظمتها ، من دون أن تغزوهم قريشُ ؛ أو تدمي لهم جلداً ؛ أو تُشْعر لهم عظماً ، فكأن مرادهم من هذا الاعتبار أن قريشاً أخضعت العرب لها من غير أن تغزوهم أو من غير ظلم ، إذ المعروف أن من لا يظلم يُظْلم ، ومن لا يُكْلِم يُكْلَم ، لأن الشُّطَّار يستضعفون الكريم الذي ينفع ولا يضر ، ولكن قريشاً لم تظلم ولم تكلم ومع ذلك كان جانبها عزيز ، وحماها لا يُضام .

قال قيس بن الخطيم في شعره الجاهلي :

إذا أنتَ لم تنفع فَضُرْ ، فإنما ... يُرجى الفتى كيما يضُرُ وينفعُ

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ .

الاعتبار الرابع عشر

قال ابن حجر العسقلانيّ : وقيل ؛ التقرش هو التنزُّه عن رذائل الأمور (1) ، يقال : تقرَّش الرجلُ ، إذا تنزَّه عن مدانس الأمور ، أو تقرَّش عن الشيء إذا تنزَّه عنه (2) .

ومرّ في الاعتبار السابق تنزههم في أمر مخصوص وهو الغارة .

قال أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم:

وكُنَّا قديماً لا نُقِرُّ ظلامةً ... إذا ما ثنوا صُعْرَ الخدودِ نقيمها

ونحمي حماها كلَّ يومِ كريهةٍ ... ونضرب عن أحجارها من يرومها

بنا انتعش العود الذواء وإنما ... بأكنافنا تندى وتنمى أرومها

وقال حذافة بن غانم يمدح بني هاشم (3):

هم ملئوا البطحاء مجداً وسؤدداً ... وهم تركوا رأي السفاهة والهجر

---

(1) فتح الباري 6/ 534 .

(2) جمهرة اللغة 2/ 732 ، ولسان العرب 11/ 107 ، التاج 4/ 338 ، نظم الدرر 8/ 534 ، وفي مقابله أقرش بالرجل ، أخبره بعيوبه وحرّش .

(3) معجم ما استعجم للبكري 1/ 258 .

قال ابن حبيب في المنمّق : فضّل الله قريشاً على سائر مضر لأنهم كانوا لا يظلمون الجار ولا يغير بعضهم على بعض ، وفضّل الله بني هاشم لأنهم كانوا أوصل للأرحام ، وأكفَّهم عن الآثام (1) .

وقد كان يقال لقريش أهل الله ، وآل الله ، لما تميزوا به عن سائر العرب من المحاسن والمكارم والفضائل والخصائص التي هي أكثر من أن تحصى ، مع الأخذ في الاعتبار أنّ العرب عامةً كانوا من أكمل الناس وأكرمهم وأحسنهم وأفضلهم ، ولكن سَوْرة ذلك كله كان في قريش أشد.

وهذا الاعتبار عزاه ابن الملقن للقزاز في جامعه (2) .

الاعتبار الخامس عشر

يقال : أقرش بالرجل ، أي أخبره بعيوبه ، وأقرش به حرّش ، واقترش فلان بفلان أي سعى به ، وبغاه سُوءً ، ويقال: والله ما اقترشتُ بك أي ما وشيتُ بك (3) قال الحارث ابن حلّزة:

أيُّها النَّاطِقُ الْمُقَرِّشِ عنَّا ... عند عمرو، وهل لذاك بقاء؟

عدَّاه بِعَن لأن فيه معنى الناقل عنَّا ، والمقرش هو المحرّش ، قال ابن حجر العسقلانيّ : وقيل ؛ أقرش بكذا إذا سعى فيه فوقع له (4) .

أما التحريش فإنا لم نعرفه لقريش ، قال ابن الملقن : وردّه الزجاجيّ في مختصر الزاهر وقال : إنه ليس بمعروف ، لأن المعروف في اللغة أن الترقيس بتقديم الراء على القاف هو التحريش ، وحاصله أن قريشاً كانوا لا يسكتون على باطل ولا عن منكر ، فكانوا يخبرون الإنسان بعيوبه لأجل أن يدعها ويتخلَّى عنها ، ويتحلى بالمحاسن والفضائل ، قال ابن الملقن : أو من أقرش الرجل إذا أخبره بعيوبه ، فكأنهم ينكرون المنكر ويعرفون المعروف (5) .

(1) صفحة 21 .

(2) التوضيح صفحة398 .

(3) تاج العروس 4/ 338 ، لسان العرب 11/ 107 ، الزاهر للأنباري 2/ 121 ، ابن خالويه 197 ، المحكم 6/ 98 ، غريب الحديث للحربي 3/ 1031 .

(4) فتح الباري 6/ 534 .

(5) التوضيح 397ـ398 .

الاعتبار السادس عشر

أو لأن قصي بن كلاب كان يقال له القرشيّ ، وهو الذي سماهم بهذا الاسم ، حكاه مرتضى في التاج وقال : قاله المبرد ونقله السهيليّ في مبهم القرآن (1) .

الاعتبار السابع عشر

قال ابن سيدة : القرشية حنطة صلبة في الطحن ، خشنة الدقيق (2) ، قال ابن الملقن : فيحتمل أن تكون قريش منها لصلابتها وخشونتها وشدّتها (3) وقد كان من الشدة أنها تحمّست . وهذا الذي نميل إليه ؛ فلأجل قوَّتها وشِدَّتِها قيل لها : قُرَيْش . وهو عائد إلى القول الأول من الاعتبار السابع .

الاعتبار الثامن عشر

يُروى عن الإمامِ جعفر الصَّادق أنه قال : المؤمنُ عَلويٌّ لأنه عَلا في المعرفةِ ، والمؤمنُ هاشميٌّ لأنه هَشَمَ الضَّلالةَ ، والمؤمنُ قُرَشِيٌّ لأنه أقرَّ بالشيء المأخوذ عَنَّا .

فعلى هذا ربما تكون سُميت قريشاً لأجل أن الناس كانوا يُقِرُّون لبني النضر بكل تقدم وبكل سابقة وفضل ـ سوى الشعر ـ ، وكانوا يقلدونهم في كل شيء ، ويجعلونهم معياراً في معرفة النافع والضار ، والخير الشر ..

***

فهذه الاعتبارات في تسمية قريش باسمها الذي تعرف به ، وقد سماها بعضهم أقوالاً ، وهي عندي اعتبارات ، لأنها كلها يمكن اعتبارها سبباً صحيحاً صالحاً للتسمية ، لا أن يكون أحدها أولى بالاعتبار والأخذ من الآخر ، إلا ما تبين سقوطه وكذبه ، فقد كانت قريش شديدة صلبة قوية عزيزة آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر لا تبغي ولا يبغى عليها لا تغزو وتغزى ، تمتهن التجارة من دون العرب ، ومن عدّها أقوالاً فهو مخطيء .

---

(1) تاج العروس 4/ 337 .

(2) المحكم 6/ 99 .

(3) التوضيح 398 .

حَدُّ قريش

ونحن نقصد من هذا المبحث أن نبين صدق إطلاق كلمة قريش على أكثر من رجلٍ من رجالات العمود النبيل ، وأن كل طبقة من طبقات العمود الشريف لها من المقال ما يناسب حالها ، فمن قال : إنّ قريشَ هو قصي بن كلاب ، لا يعني أن الذين من نسل أبيه كلاب بن مرة ما هم من قريش ، فلا تستريب ما لو قلت لك إن كل الأقوال التي سأسردها أمامك لا تتعدى الصحة إلى الغلط ، ولا تجاوز الصدق إلى الكذب ، عدى ما سنرده في حينه من الشاذ ، وهاكها :

الاعتبار الأول : هو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

وهذا اعتبارٌ معتبرٌ وصحيحٌ خلافاً لمن أنكره وأباه ، فهو قريش الأكبر ، فهو أوّل من أُبتدع له هذا اللقب ، وبهذا القول قال أكثر السلف الأثبات ، واختاره كثير من الخلف الموصومين بالتحقيق والموسومين بالتدقيق ، فقد نسبه ابنُ عبد البر لأكثر الناس (1) ، كما نسبه لابن الكلبيّ (2) ، قال ابن الملقن : هذا هو المذكور في جمهرته وجامعه (3) ، وهو كذلك في جمهرة شيخ أهل النسب (4) ، وبه قال ابن دُرِيْد في الاشتقاق (5) ، والحازميّ في عُجالة المبتديء (6) ، وابن قتيبة في المعارف (7) ، وأبو حيّان البستي في الثقات (8) ، والنسفيّ في تبصرة الأدلّة (9) ، والماورديّ في أعلام النبوة (10) ، وجعله السيد ابن عِنَبَة العلويّ أصحّ الأقوال (11) وكذلك فعل السمين الحلبيّ (12) ، والنوويّ الشافعيّ (13) ، قال الرافعيّ: هم ولد النضر بن كنانة ، قال الأستاذ أبو منصور رحمه الله : هذا قول أكثر النسابين ، وبه قال الشافعيّ رضي الله عنه وأصحابه رحمهم الله تعالى ، وهو أصحّ الأقوال (14) ، وقال القرطبيّ : هو أصحّ وأثبتْ (15) ، وقال أبو الفرج الأصفهانيّ في الأغاني: النضر عند أكثر النسابين أصل قريش وقال في موضع آخر عن بني عبد مناة بن كنانة:إنهم إخوة قريش قال : لأنّ قريشاً مختلف في الموضع الذي افترقت فيه مع أبيها ، فخصّت بهذا الاسم دونهم ، وأبعد من قال في ذلك مدىً من زعم أنّ النضر بن كنانة منتهى نسب قريش (16) ،

---

(1) الإنباه 42 .

(2) الإنباه 43 .

(3) التصريح 394 .

(4) الجمهرة 25، 134، 188 .

(5) الإشتقاق 27 .

(6) العجالة 103 .

(7) المعارف 67 .

(8) الثقات 1/ 22 .

(9) تبصرة الأدلة 2/ 828 .

(10) أعلام النبوّة 173 .

(11) عمدة الطالب 135 .

(12) الدر المصون 6/ 572 .

(13) تحرير التنبيه 33 .

(14) العزيز 7/ 338 .

(15) تفسير القرطبيّ 20/ 138 .

(16) الأغاني 1/ 16، 4/ 361، 12/ 346 ..

قال ابن كثير في تفسيره : هو الذي نصَّ عليه هشام بن محمد بن السائب الكلبيّ وأبو عبيد معمر بن المثنّى ، وهو جادة مذهب الشافعيّ – رضي الله عنه – (1) ، حتى لقد حكى الفخر الرازيّ (2) ، والنيسابوريّ (3) الاتفاق على هذا ، وفي حكايتهما الاتفاق نظر لما ترى من اختلافهم ، واختاره من المتأخرين الزمخشريّ المعتزليّ في الكشاف (4) ، وابن عطيّة (5) ، وابن سعيد الأندلسيّ في نشوة الطرب (6) ، وابن عبد ربه في العقد الفريد (7) ، وابن خلدون المغربيّ في تاريخه (8) ، وابن قيّم الجوزية في زاد المعاد (9) ، والثعالبيّ في تفسيره (10) ، وابن قدامة الحنبليّ في التبيين (11) ، والبقاعيّ في نظْم الدرر (12) ، والبيضاويّ في الغاية القصوى (13) ، وابن فندق البيهقيّ (14) ، وابن حجر الهيتميّ في الصواعق (15) وابن الجوزيّ (16) ، وابن عابدين الحنفيّ (17) ، وهو ظاهر اختيار أبي حيّان في البحر المحيط (18) ، والمرداويّ من الحنابلة وإنْ حكى أنّ الأكثر يرونه فهر بن مالك (19) ، وهو في سيرة ابن هشام (20) ، وفتاوى ابن رشد (21) ، وفتح الباري (22)، واللباب لابن الأثير (23) ، وأنساب الأشراف للبلاذريّ (24) ،

---

(1) تفسير ابن كثير 2/ 200-203 .

(2) مفاتح الغيب 32/ 100 .

(3) تفسير النيسابوريّ 30/ 169 .

(4) الكشاف 4/ 235 .

(5) تفسير ابن عطية 5/ 525 .

(6) نشوة الطرب 1/ 322 .

(7) العقد 3/ 293 ، 266 .

(8) تاريخ ابن خلدون 2/ 387 .

(9) زاد المعاد 3/ 618 .

(10) الجواهر الحسان 4/ 443 .

(11) التبيين 55 .

(12) نظم الدرر 8/ 534 .

(13) الغاية 2/ 967 .

(14) اللباب 1/ 190 .

(15) الصواعق المحرقة 285 .

(16) زاد المسير 9/ 240 .

(17) الدر المختار 2/ 318 .

(18) البحر المحيط 7/ 513 .

(19) التنقيح المشبع في تحرير أحكام المقنع 122 .

(20) السيرة 1/ 40 ، 25، 134 ، 188 .

(21) الفتاوى 1/ 409 .

(22) فتح الباريّ 6/ 534 .

(23) اللباب 30 .

(24) أنساب الأشراف 11/ 80 ..

ولسان العرب معزواً لابن سيدة (1) ، والحاصل أنه الذي عليه الفقهاء كما قال الآلوسي لظاهر حديث الأشعث بن قيس (2) ، وحديث الأشعث بن قيس الكنديّ أنه قال : يا رسول الله ، نحن بنو آكل المرار وأنتم بنو آكل المرار ، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم : ((لا ، نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقفوا أمّنا ؛ ولا ندّعي لغير أبينا)) ،

ويستشهدون له بشعر منه قول جرير :

فما الأمُّ التي ولدتْ قُريشاً ... بِمُقرفةِ النِّجارِ ولا عقيمِ

فما ولدٌ بأكرم من أبيكم ... ولا خالٌ بأكرم من تميم

وقد كانت أمُّ النضر أخت تميم بن مُرّ بن أدّ وكانت تدعى بَرَّةَ بنت مُرّ .

والقائلون : إنه النضر بن كنانة هم فريقان اثنان ، فريقٌ يذهب إلى أنّ قريشاً هو اسم النضر بن كنانة ، والآخرون يذهبون إلى أنه اسم لبني النضر لا للنضر نفسه ، مع اتفاق الفريقين على أن النضر هو جذم قريش كلّها وهو جامعها ، وإلى هذا نذهب نحن ، لأجل حديث الأشعث الذي لا ينبغي إغفاله ولاعتبارات في النسب .

الاعتبار الثاني : هو مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

حكاه النسّابة ابن عنبة الطالبيّ في عمدة الطالب قولاً (3) ، والأشعريّ في التعريف والتنويه (4) ، وحكاه ابن عبد البر في الإنباه (5) عن أبي عبد الله العدويّ إذ قال العدويّ : جماع قريش كلها ، فهر والحارث ابنا مالك بن النضر بن كنانة ، وذكر قول كثيّر عزّة الخزاعيّ :

أليس أبي الصَّلت أمْ ليس إخوتي ... لكلِ هجان مِن بني النضر أزهرا

إذا ما قطعنا من قريش قرابةً ... فأي قسيٍّ تحفِر النبل ميسرا

---

(1) لسان العرب 14/ 178 .

(2) انظر تفسير الآلوسي 30/ 238 وانظر هذا القول زيادة على ما تقدم ، تفسير ابن عاشور 30/ 556 ، وفيض القدير للمناويّ 1/ 179 ، وقال في موضع آخر بخلافه 3/ 37 ، النجم الوهاج للدميري 6/ 393 .

(3) عمدة الطالب 135 .

(4) التعريف 52 .

(5) الإنباه 75 .

قالوا : ذلك لأنّ الصلت بن النضر بن كنانة دخل في بني مليح من خزاعة ، وقيل : بل هو أبو مليح من خزاعة ، وزعم قومٌ أنه أبو خزاعة ، وعلى كلٍ فإنه يستحيل أنّ يكون النضر جماع قريش ، وإلاّ لانتسب كثيّر عزّة في شعره هذا لقريش ، ولما لم يفعل علمنا أن قريشاً إنما هم بنو مالك بن النضر إخوة مليح .

وقال العباس بن مرداس يمدح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم :

رأيتُك يا خير البرية كلها ... توسطتَ في القربى من المجد مالكاً

وقال الآخر (1) :

يا أيها السائل عن مالكٍ ... ومجدها ، هل لك في العالمِ

وقال غيره يمدح أحد بني الزبير بن العوام (2) :

أغرُّ زبيريّ نمتْه جدوده ... بنو مالك في بيت مجد مشيد

---

(1) أخبار قريش لابن بكّار 40 .

(2) أخبار قريش لابن بكّار 171 .

الاعتبار الثالث : قريش هو فهر بن مالك بن النضر .

هو قريش الأوسط ، وهو ثاني رجل من رجالات العمود لقب بقريش ، فهو الجامع لأنساب القرشيين ، واشتهر فهر بن مالك وغالب بن فهر على الاعتبار الأوّل لأنّه كان في مقدمة القائلين به المصعب الزبيريّ (1) ، وهو قول البلاذريّ (2) ، وعليّ بن كيسان ، واختيار ابن حزم (3) ، والبُرّيّ صاحب الجوهرة (4) ، وحكاه النوويّ في تحرير التنبيه قولاً مرجوحاً (5) ، وابن الأثير في اللباب (6) ، وابن الجوزي في تفسيره (7) ، وبه قال ابن عاشور وعزاه لجمهور النسابين (8) كما فعل ابن حجر العسقلانيّ (9) ، وفي حكايتهما تلك نظر ، وأصدق منها عبارة ابن عنبة النسابة إذ قال : هو في كثير من الأقوال جماع قريش ، فكل من ولده فهو قرشيّ (10) ، وليس يصحُّ ، وينسب هذا القول لابن الكلبيّ شيخ أهل النسب غير أن عبارة الطبريّ في تاريخه ليست صريحة ، إذ قال : وفهر فيما حُدثتُ عن هشام بن محمد أنه قال : هو جماع قريش (11) ، ففرق بين أن يكون جماع قريش وبين أن يكون غاية نسب قريش كما سيأتي إن شاء الله كما لا يفهم ذلك من عبارة الزبير بن بكّار التي حكاها الكلاعيّ بعد أن عزا القول للأكثر قال : قال الزبير : قد اجتمع النساب من قريش وغيرهم أن قريشاً إنما تفرّقتْ عن فهر ، ويقال إن قريشاً هو اسمه الذي سمته به أمه ولقبته فهراً (12) فجزء عبارته الأخير شاهد على ذلك ، نعم وقع تناقض في جمهرة ابن الكلبيّ ، وعبارة ابن الكلبي في جمهرته : فولد مالك بن النضر ، فهراً ، وإليه جماع قريش .. فولد فهرٌ وهو قريش ، .. ،

---

(1) نسب قريش 12 .

(2) أنساب الأشراف 1/ 39 .

(3) أنظر الجمهرة 2ـ12 ، وجوامع السير 3 .

(4) الجوهرة 1/ 129 ـ 131 .

(5) التحرير 33 .

(6) اللباب 30 .

(7) تفسيره 9/ 240 .

(8) تفسيره 30/ 556 .

(9) فتح الباري 6/ 534 .

(10) العمدة 135 ضمن الرسائل الكمالية .

(11) تاريخ الطبريّ 1/ 510 .

(12) الإكتفاء 1/ 24 ، الروض الأنف 1/ 396 .

وكان يقال لقريش بنو النضر فلما جمعهم قصي كان يدعى مجمعاً .. ، وولد كنانة ، النضر بن كنانة ، فهم قريش (1) ولعل سبب ذلك أن أصل الكتاب لمحمد بن السائب الكلبيّ يرويه عنه ابنُه هشام بن محمد ، ولعله رأى غير رأي

أبيه ، أو هو كائن من قبل الرواة ، وروى ابن سعد عن هشام قال : علّمني أبي وأنا غلام نسب النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم محمد الطيب المبارك بن عبد الله .. بن فهر ، وإلى فهر جماع قريش ، وما كان فوق فهر فليس يقال قرشيّ ، يقال كنانيّ ، وروى عنه أنه قال : إنما سموا قريشاً لأنّ بني فهر الثلاثة كان اثنان منهم لأمّ والآخر لأمّ أخرى ، فافترقوا فنزلوا مكاناً من تِهمة مكة ، ثم اجتمعوا بعد ذلك ، فقالت بنو بكر : لقد تقرّش بنو جندلة (2) ، وهذا الأخير يفيد أنّ هذا الاسم محصورٌ في بني فهر ، كما هو رأي ابن فضل الله العُمريّ (3) ، وأنه وُجِد بعده وقبل قصي ، قال السمين الحلبيّ في الدر : فوقع الوفاق على أن بني فهر قرشيون ، وعلى أن كنانة ليسوا بقريش ، ووقع الخلاف في النضر بن كنانة (4) ، وبهذا الاعتبار قال من الفقهاء ابن رشد في فتاويه (5) ، والدميريّ (6)، والمرداويّ من الحنابلة عن الأكثر (7) ، وابن الملقن في التوضيح (8) ، والمناويّ (9) ، وحكاه قولاً مرجوحاً ولم يعزه القرطبيّ (10) وأبو حيّان (11) ، أما الأصفهانيّ في الأغانيّ فقد عزاه لبعض النسابين ولم يسمهم ، ولعله هو الذي اختار (12) ، أما عن الشعر الذي ورد فيه ذكر فهر فهو كثير جداً .

---

(1) الجمهرة لابن الكلبي من مواضع عدة 21 ـ 22 ـ 25 ـ 134 ـ 188 .

(2) الطبقات 1/ 46 ـ 57 ـ 69 .

(3) مسالك الأبصار 95 .

(4) الدر المصون 6/ 572 .

(5) فتاويه 1/ 408 .

(6) النجم الوهاج 6/ 393 .

(7) التنقيح 122 .

(8) التوضيح 394 .

(9) فيض القدير 3/ 37 .

(10) تفسيره 20/ 138 .

(11) تفسيره 7/ 513 .

(12) الأغاني 1/ 16 ، 4/ 361 ، 12/ 364 .

الاعتبار الرابع : قريش هو غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، فمن كان من ولده ، كان من صميم قريش . (1)

وهذا قال به أشهبُ مِن أصحاب مالك وتبعه شرذمةٌ من المالكية ، فمن كان من ولد غالب كانت الصدقة عليه حرام ، وكانت الخلافة جائزة في ولده ، لأنّ رسول الله نادى : ((يا آلَ غالب)) في حديث العشيرة يوم صعد الصفا ، ولأنه وردت أشعار كثيرة ذكر فيها غالب بن فهر ، فمن ذلك قول عاتكة السعدية ، سعد تميم (2) :

فلا تكفروا سعدُ خراطيم غالب ... قريش العلى ما حجّ أهل المواسم

وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثي أباها ، وقيل ـ بل ترثي أبا طالب بن عبد المطلب ـ (3):

والريس المعلومَ والمعتفي ... في كلّ ما عالَ بني غالب

وقال الحزين لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم :

وأنت المهذب من غالب ... وفي البيت منها الذي يذكر

فقال له : كذبتَ يا عدو الله ! ذاك نبي الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم (4) .

وقال أبو سفيان صخر بن حرب بن أميّة بن عبد شمس :

أقاتلهم وأدعي يالَ غالب ... وأدفعهم عني بِرُكنٍ صليب

الاعتبار الخامس : قد يقول قومٌ : إنما قريش هو لؤي بن غالب بن فهر بن مالك ، ولكن لم أجد من صرّح بذلك ، بيد أني رأيتهم في أشعارهم يذكرون لؤي بن غالب وكأنه هو رأس قريش وكأنه جماعها ، وما ذاك إلاّ لشرف ذريته وكون بيت فهر في غالب بن فهر ثم في لؤي بن غالب بن فهر .

فمن ذلك قول ضرار بن الخطاب الفهريّ وهو من بني محارب بن فهر:

ولكن أبوهم من لؤي بن غالب ... إذا عُدّتِ الأنسابُ ، كعبٌ وعامرُ

وقال :

أرى ابني لؤي أوشكا أن يسالما ... وقد سلكت أبناؤُهم كُلَّ مسلكِ

فيا ابنيْ لؤيّ إنما يمنع الخنا ... أولو العرضِ والأحسابِ والمتمسّكِ

---

(1) انظر فتاوى ابن رشد 1/ 408 ، جلاء الأفهام 159 ، فتح الباري 3/ 354 .

(2) المنمق 356 .

(3) الزاهر لابن الأنباري 2/ 121 ، المقصور والممدود للقالي 99 .

(4) أنساب الأشراف 2/ 313 .

وقال يرثي أبا جهل المخزوميّ قتيل بدر كافراً:

على هالكٍ أشجى لؤيّ بن غالب ... أتته المنايا يوم بدرٍ فلم يَرِمْ

وقال في جاهليته :

ما ينتهون عن الغيّ الذي ركبوا ... وماهم من لؤي ، ويحُهم ، عَضَدُ

وقال حسّان بن ثابت في عائشة أم المؤمنين:

عقيلة حيٍّ من لؤيِّ بن غالب ... كرام المساعي مجدها غير زائل

وقال في حريق نخيلات بني النضير:

وهَانَ على سراة بني لؤيّ ... حريقٌ بالبويرة مستطيرُ

وأجابه أبو سفيان المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم قبل إسلامه:

وعَزَّ على سراة بني لؤيّ ... حريقٌ بالبويرة مستطيرُ

وقال المثقب العبديّ:

ظعائنُ لا تُوفي بهنَّ ظَعَائنٌ ... ولا الثَّاقباتُ من لؤيِّ بن غالبِ

وقال أبو جهل بن هشام:

بأيدي حُمَاةٍ من لؤيِّ بن غالبٍ ... كرامِ المساعي في الجُدُوبَةِ والمَحْلِ

ويروى أنّ عمر بن الخطاب خرج في الجاهليّة تاجراً إلى الشام ، فمرّ بزنباع بن رَوْح وكان عَشّاراً ، فأساء إليه في اجتيازه وأخذ مكسه ، فقال عمرُ بعد انقضائه:

متى أَلْفَ زنباعَ بن رَوْح ببلدة ... إلى النصف منها يقرع السنّ بالندم

ويعلم أنّا من لؤي بن غالب ... مطاعين في الهيجا مضاريب في التّهم

والشواهد في ذلك كثيرة ، وإنما ذكر هذا الاعتبار بشواهده وإن لم يبلغنا عن أحد أنه قال به فلأجل أن يُعلم أنّ كلّ رجالات السلسلة الشريفة ، والعمود النبيل هم على سنن واحد ، ووتيرة واحدة ، وسوف نعلل لك ذلك إن شاء الله تعالى .

الاعتبار السادس : قريش هو كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، فمن كان من ولد كعب كان قرشياً وإلاّ فهو كنانيّ لا قرشيّ .

قال الشاعر: (1)

أبلغ قريشاً إذا ما جئتَها منا ... أنّ الشجاعةَ منها والنّدى خلق

لولا فوارس من كعب ذوو شرف ... يوم القيبة لما احمرّت الحدق

وقال ضرار بن الخطاب الفهريّ: (2)

(1) الشعر في المنمق 354 .

(2) البيت في ديوانه 72 .

لمّا أتت من بني كعب مُزَيَّنَةٌ ... والخزرجيّة فيها البيضُ تأْتَلِقُ

وروى الخطيب البغداديّ في تاريخ بغداد بسنده عن أبي سفيان الأسلميّ قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم : ((نزل القرآن على لغة الكعبيْن ، كعب بن لؤي وهو أبو قريش ، وكعب بن عمرو وهو أبو خزاعة)) (1) ، وفي بعض روايات حديث العشيرة قال عليه السلام : ((يا بني كعب بن لؤي ! أنقذوا أنفسكم من النار)) (2) ، وقد قيل : إنّ يوم الجمعة إنما سمي باسمه لأجل أن قريشاً تجمّعتْ فيه إلى كعب بن لؤي (3) ، وحاصله أنه قول ليس بالقوي إذا كان المقصد أن ما كان فوق كعب ليس بقرشيّ ، وإن كان كعب قد خُصص هنا فقد خُصص غيره هناك ، فكل مقام خصص له من الكلام ما يناسبه ، وكعب بن لؤي هنا لأنه جامعٌ لشرف قريش وعزها ، ولكونه الصريح من قريش ، وآله هم أفصح قريش ، وهو قريش البطاح في غالبهم أي في بطن مكة ، وكانوا هم الذين يقوم بشأن حُجّاج بيت الله الحرام ، وكانوا يخالطون الحُجّاج فيسمعون أنماطاً من كلام العرب ، لهجات ولغات ، فكانوا يستعيرون من الوافدين ما يستحسنونه من اللغات ، وما لا يستوحشونه من اللهجات ، فكانوا أفصح العرب ، وأثراهم ألفاظاً مفردة ، وأوسعهم اشتقاقاً .

(1) تاريخ بغداد 5/ 173ـ174 .

(2) أنظر فتاوى ابن رشد 1/ 407ـ408 .

(3) تفسير القرطبي 18/ 65 .

الاعتبار السابع : قريش هو قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن مالك بن فهر بن النضر بن كنانة ، فمن كان من ولده كان من صميم قريش ، ومن كان من ولد فهر بن مالك بن كنانة أو من ولد النضر بن كنانة كان قرشياً ليس من الصميم ، وإنما لأجل غلبة البعض على الكل.

قالوا : فقد كان قصي بن كلاب يقال له القرشيّ ، ولم تُسَمَّ قريشٌ قبله ، فهو أوَّل من سُمي به ، وذلك لأنه جمع بني النضر بن كنانة بمكة حوالي البيت ، وكانوا من قبل يعرفون ببني النضر أو آل فهر ، فدعي من يومئذ مجمّعاً بجمعه قريشاً ، والتقرش ، التجمع ، وهو وإن لم يكن الجامع لأنساب قريش إلاّ أنه هو الذي جمع أشتات قريش بعد أن

كانت أصراماً في كنانة ، قالوا : ومن زعم غير هذا ، قول عن الصواب بعيد .

وهذا القول رواه ابنُ سعد بسنده عن شيخ أهل النسب هشام بن محمد بن السائب الكلبيّ وعن محمد بن جبير بن مطعم ، أو لأن قصي بن كلاب لما غَلَبَ على الحرم فَعل أفعالاً جميلة ، فقيل له : القرشيّ ، وهذا رواه ابن سعد بسنده عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، وقد سأل عبدُ الملك بن مروان ، محمدَ بن جبير بن مطعم : متى سُمّيتْ قريشٌ قريشاً؟ فقال : حين اجتمعت إلى الحرم من تفرقها ، فذلك التجمع التقرش ، فقال عبد الملك : ما سمعتُ بهذا ، ولكن سمعت أنّ قصياً كان يقال له القرشيّ ولم تسم قريش قبله (1).

قال الأوّلُ:

أبوكم قصيٌّ كان يُدعى مُجَمِّعاً ... به جمع اللهُ القبائل مِن فهرِ

وقال الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب:

نحن كنّا حُضَّارها من قريش ... وبنا سميتْ قريشٌ قريشاً

وحاصله أن قصياً سمي قريشاً أو القرش ، لأنه جمع بني النضر حوالي البيت بمكة ، ولأنه جمع بني النضر بالرحلتين، ولأنه أول من جمع يوم الجمعة فخطب ، ولأنه جمع لمفاخر عدنان وشرفها القيام بشأن بيت الله وخدمة حجاج بيته ، فسمي مجمعاً لأجل ذلك كله ، والتقريش هو التجميع .

(1) الطبقات الكبرى 1/ 59 .

والقول إن قصي هو جماع قريش هو قول أصبغ من المالكية فيما حكاه عنه ابن حجر في الفتح (1) ، والنوويّ في شرح مسلم (2) ، وتسرّع الآلوسي في حكمه فضعّف هذا القول قائلاً : وأضعف من السابق - يعني القول بأن قريش هو بالنسبة إلى مخلد بن النضر - بل هو قول رافضي يريد به نفي حقيقة خلافة الشيخين ، إنهم ولد قصي بن حكيم ، وقوله : أبونا قصي كان يدعى مجمعاً .. لا يدل على ما زعمه أصلاً (3) ، وهذا سهوٌ منه رحمه الله ، إذ لم يقل بهذا القول شيعيٌّ رافضيٌّ أصلاً ، وإنما قال به شرذمةٌ من أهل السنة ، والشيعةُ إنما يقولون : إنّ الخلافة في بني هاشم خاصة لا في قريش عامة ، ثم في الأشراف ، وإن اختلفوا فيما بينهم ، ولا يمكن رد هذا القول بالجملة على أي حال ، فلا بد من التفصيل في القضيّة. (4)

وقد يروى عن بعضهم أن قريشاً هو كنانة بن خزيمة بن مدركة ، ولكنه شاذٌ ، لا عبرة به ، ولا يذكر قولاً .

*

(1) فتح الباري 3/ 354 .

(2) شرح مسلم 7/ 176 .

(3) تفسير روح المعاني 30/ 238 ـ239 .

(4) أنظر هذا القول في : المحلى لابن حزم 6/ 147 ، أحكام القرآن للجصاص 2/ 84 ، جلاء الأفهام 159 القونين الفهية لابن جزي 75 ، فتاوى ابن رشد 1/ 408 ، تاج العروس 4/ 337 التوضيح لابن الملقن 396 ، فتح القدير للمناوي 2/ 501 .

ولعلك تعلم أن العرب تقول قريش ، وتقول أحابِيش/ حُبْش ، وتقول حُمْس ، وتقول جمرات ، فالجمرات جمع جمرة، ويقصدون بها أن تتجمع القبيلة في نفسها فلم تُدخل معها غيرها ولم تَدخل في أحلاف قبليّة ، وفي العرب أربع قبائل تعرف بالجمرات ، فجمرات العرب هي نمير بن عامر بن صَعْصَعْة ، والحارث بن كعب ، وضبّة ، وعَبس (1) ، وأما التحميس فهو لمن ولدته قريش من قِبل النساء من العرب من غير قريش ، وهو ما يمكن أن ندعوه بمسألة أولاد القرشيّات ، والأحابيش لأحلاف قريش ممن ليس بالضروري أن يكون بينه وبين قريش صهر أو رحم ، وكل ذلك نمط من أنماط التجمع ، وشكلاً من أشكال التجمهر .

(1) دراسة في علم النسب لمريم الدرع في أول كتاب النسب لأبي عبيد صفحة 126 .

أما التقريش فهو التجمع مع الدخول في أحلاف ، ولم يكن لغير بني النضر بن كنانة ، فلم يدخل فيه معهم أحدٌ غيرهم ، فأنت ترى بعدُ ما لتلك الاعتبارات من علاقة وثيقة بعضها ببعض ، ولكل واحد منها وجه من الصحة ، مع تفاوتها في ذلك ، ولهذا كنت قد سميتها اعتبارات ولم اسمها أقوالاً ، وأيّ ما كان سبب التسمية فإنّ النضر بن كنانة هو قريش ، وإنّ فهر هو قريش ، وإنّ قصي هو قريش ، كل ذلك حسبما نقله الناقلون ، ولا عجب ، وليس ثمة غرابة في ذلك ، لأن النضر هو الذي يجتمعون فيه ، وهو أول من عرف بقريش ، وهو الذي اتفق الجمهور عليه ، بل هو الصحيح ، وفهر مثله في ذلك ، وليس في الكلام تناقض ، لأن النضر ليس له بقية إلا من قِبَل فهر بن مالك بن النضر ، ولهذا اقتصروا على فهر وتركوا النضر لقرب فهر منهم ، كحالهم مع هاشم وابنه عبد المطلب ، إذ لما لم يكن لهاشم بقية من قبل الرجال سوى من عبد المطلب ، ترك بعض الفقهاء التعبير عن القرابة بهاشم ليُحِلّوا مكانه ابنه عبد المطلب بن هاشم ، وهو وإن كان تصرف غير دقيق وخلاف الأحوط والمتعارف عليه إلاّ أنه مستقيم ، فالخلاف إذن المنقول في كل ذلك لا يعدو أن يكون خلافاً في اللفظ دون المعنى ، وفي الشكل دون الجوهر ، ولهذا تجدهم يقولون : إنّ أبا قريش هو فهر على الأصح ، وقال الأكثر : هو النضر ، وكنت قد دعيت النضر بقريش الأكبر ، وفهر

بقريش الأوسط ، وقصي بقريش الأصغر ، وإن شئت جعلتَ – في غير ملامة – الأصغر أكبر ، والأكبر أصغر ، أو جعلتهما في الأوسط ، فكل ذلك مما يجوز تبعاً لرؤيتك (1) .

(1) قال ابن خلدون في تاريخه 2/ 387 : وأما قريش وهم بنو النضر بن كنانة و ليس فهر بن مالك بن النضر .. وإنما انتسبوا إلى فهر لأن عقب فهر منحصر فيه لم يعقب من بني النضر غيره فهذا وجه القول بأن قريشاً من بني فهر بن مالك ، أعني انحصار نسبهم فيه، وأما الذي اسمه قريش فهو النضر .

وخلافهم هذا في حقيقته في من هو الذي أطلق عليه مسمى قريش ؟ أهو النضر بن كنانة ، أم هو فهر بن مالك بن النضر ، أم هو قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، أم كعب بن لؤي ، أم مالك بن النضر؟ أم مَنْ مِنْ رجالات العمود النبيل غير المذكورين ، فكلهم في الحقيقة لا تجد لهم مثيلاً في العرب ، وفي قريش على بكرة أبيها ، وهذا خلاف لا تأثير له في مقام النسبة والنسب معاً ، لأنه لا يعدوا أن يكون من باب إطلاق الكل على البعض أو من باب إطلاق البعض على الكل ، أما في مقام النسبة وحدها فقد أضافوا آخراً وهو قريش بن يخلد ، وهذا الأخير ضعيف عندي غير مقبول ، ولم يبق إلاّ أنّ الأمر لم يعدو أحداً من رجالات العمود الشريف ، فكلٌ قريش ، ولكل مقام مقال ، فالجامع لأشتاتهم على صعيد واحد هو قصي بن كلاب ، قال الشاعر:

أبوكم قصي كان يدعى مُجَمِّعاً ... به جمع اللهُ القبائل من فهرِ

وقال الحطيئة:

وأنَّ الذي اعطيتهم أو منعتهم ... لكالتمر أو أحلى لحلف بني فهرِ

والجامع لأنسابهم حتى التقوا في شخصه هو النضر بن كنانة فهو القرشي في هذا المقام ، إذ إليه تجتمع ، وفيه تلتقي ومنه تتفرق وعنه تصدر ، وسيّان قولك هو النضر هنا أم قلت فهر بن مالك ، بَيْدَ أن الأولى هو الأول ، ففي النضر تفرقت ، وفي قصي تأصلت وبه اشتهرت وله تعصبت ، وأما لؤي بن غالب ففيه ينتهي عدد قريش وشرفها ، كما أن هاشم قد جمعهم على الإيلاف ورحلة الشتاء والصيف ، وجمعهم مرّة على طعامه ، وسنَّ ذلك لبني أبيه ، إخوته وبنيه ، كما أنهم قالوا هو النضر بن كنانة ، لأجل عظمته فيهم وشرفه وسؤدده وأبوته ، وكأنه لقب يلقب به عظمائهم، فكل من صدق عليه شيء من اشتقاق الكلمة من رجالات العمود صحّ أن يكون أخصّ قريش بالتسمية وله تتمحَّض ، كالنضر ، ومالك ، وفهر ، وغالب ، ولؤي ، وكعب ، ومرّة ، وكلاب ، وقصي ، وعبد مناف ، وهاشم ، وعبد المطلب ، وكلهم من رجالات العمود النبيل ، فانظر ماذا يصدق على كل واحدٍ من هؤلاء شيءٌ من

تلك الاعتبارات ، فكما قال بنو بكر بن كنانة لما تجمع بنو فهر : لقد تقرَّشَ بنو جندلة (1) ،

(1) طبقات ابن سعد 1/ 57 ..

ويعنون أولاد فهر الثلاثة ، كذلك قالت العرب في حق بني عبد مناف : أقرش مِن المجبرين ، وأقرش ، أفعل تفضيل ، وهو يعني تمحّض القرشية وتركّزها فيهم ، والذي قيل في حق بني فهر معناه التَّجَمُّع ، والذي قيل في حق بني عبد مناف معناه الإِقْراش ، ويعنون أَكْسَب ، وأتجر ، وأكثر إحساناً ، والذي قيل في حق قصي بن كلاب معناه التَّجْمِيع ، فكانت قريش قبل أن يكون قصي الذي جمع بني النضر بن كنانة ، وسلَّهم عن باقي بني كنانة كما تُسل الشعرة من العجين ، وفتّش عنهم تفتيشاً ، وكوَّن لهم عصبية وحَمِيَّة مستقلة عن باقي بني كنانة ، بعد أنْ كان بنو كنانة كلهم بعصبية واحدة وحميّة غير منفكة ، وقد تقدم في بعض الاعتبارات أنّ التقريش هو التجمع ، كما أنه في اعتبار آخر هو التفتيش ، مع كوننا نقر بصحة باقي الاعتبارات ، ولعل خير ما يوضح الكلمة هو الرجوع إلى مادتها في جميع التقلبات ، قال البرهان البقاعيّ في نظم الدرر عن مادة : (ق ، ر ، ش) : والمادة كلها للشدّة والإختلاط (1) .

فلما أن جمعهم قصيٌ تمحّضت العصبية في بني النضر وقويتْ ، وتمحّضت فيه القرشية وتركّزتْ ، كما تمحّضت سَوْرة التسمية واشتدت في ذريته بالتبع ، وإنما خصُّوا قصياً بهذا اللقب ؛ مع أنه كان عاماً في جميع أفراد بني النضر ؛ فلأجل التشريف ، والتعظيم ، والتكريم ، ولماّ تمحّض في قصي تأكّد في باقي بني النضر بن كنانة ، واشتدت سَوْرته فيهم ، فكان هو الذي جدّد لهم هذا الاسم ، فعُدّ مجدداً ، فعمّ فيهم بسببه مرة أخرى بعد أن خصُّوا به قصياً ، فأطلق على العموم اسم الخاص ، فكانت قريش ، والتصغير للترخيم ، والمقصود به التعظيم ، فأيّ تجمع هو ، فلعمري لم يكُ كأيّ تجمع ، ففيه من العصبية والحمية ، والتحمس ، والخصائص ما لم تعهده العرب قاطبة من قبل ، فلا هو كخزاعة ، ولا كغسان ، ولا كذي كلاع ، ولا كالرباب أو تنوخ .

(1) نظم الدرر 8/ 534 .

ولما كان عمود نسبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم قد تواتر فيه النبلُ ، وتتابع فيه الكرمُ ، قد وَرِثَ السيادةَ طبقةً عن طبقةٍ، ونالَ العزَّ كابراً عن كابرٍ ، فإذا الذين يشكلون فقرات تلك السلسلة النبيلة كلهم قُروم مُهذّبون ، فكل رجل من رجالات العمود النبيل قد جدّد لقريش أمر عزّها ، وأركان شرفها ، وقَحّمَها جراثيم النُبْل ، وما تشعب العمود

شعبتين إلاّ وكان النبيُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم في خير الشعبتين ، فكانت قريش تبعاً لذلك القِرم المهذّب ، ولذلك كانت بنو قصي أوسط قريش داراً ونسباً ، أما الدار فبطنان مكة وسُرَّتها ، حوالي البيت ، وأما النسب فقد عرفتَ ، وقد كان قصي أول من أصاب الملك من قريش بعد ولد إسماعيل (1) ، وكما قد قالوا : صريحا قريش ، ابنا كلاب (2) ، وهم يعنون زُهْرَةَ وَقُصَي ، قال حسان بن ثابت الأنصاريّ يهجو عبد الله بن الزبعرى القرشيّ السهْميّ في جاهليته:

فلا تفخر، فإن بني قصي ... همُ الرأس المقدم والسنامُ

وأهلُ الصَّيتِ والسوراتِ قدماً ... مقدمها إذا نسب الكرامُ

همُ أعطوا منازلها قريشاً ... بمكة وهي ليس لها نظامُ

وقال يهجو الوليد بن المغيرة المخزوميّ قتيل بدر كافراً :

إذا عُدَّ الأطايب من قريشٍ ... تلاقتْ دونَ نِسْبَتِكم كلابُ

فاتفقوا على أنّ المجمّع لشملهم هو قصي بن كلاب ، وعلى أنّ الجامع لأنسابهم هو النضر بن كنانة ، وإنْ شئتَ قلتَ: فهر بن مالك بن النضر ، والأول أتمّ وأحسن ، ومن ثمَّ وقع الخلاف ، وجائزٌ أنّ أصل التسمية جاءت من قصي وأنها لم تكن تُعرف من قبل ، ثُمَّ عمّت جميع أفراد آل فهر بن مالك .

(1) نهاية الأرب للألوسي 1/ 247 .

(2) أنساب الأشراف للبلاذري 1/ 48 .

قال ابن حَجر العسقلانيّ : وقيل أوّل من نُسب إلى قريش ، قصي بن كلاب ، فروى ابنُ سعد أنّ عبد الملك بن مروان سأل محمدَ بن جبير بن مطعم : متى سُمِّيت قريشٌ قريشاً؟ فقال : حين اجتمعت إلى الحرم بعد تفرقها ، فقال عبد الملك : ما سمعتُ بهذا ، ولكن سمعت أن قصياً كان يقال له القرشيّ ، ولم يسمَّ أحدٌ قريشاً قبله ، وروى ابن سعد من طريق المقداد ، لما فرغ قصي من نفي خزاعة من الحرام ، تجمّعت إليه قريش ، فسميت يومئذ قريشاً لحال تجمعها ، والتقرش التجمع (1) .

وقال ابن عبد البر المالكيّ هذه القصة ورواها عن الواقديّ وذكر عنه أنه قال أيضاً بإسناده عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه قال : لما نزل قصي الحرمَ وغلب عليه ، فعل أفعالاً جميلةً ، فقيل له القرشيّ ، فهو أول من سمي بذلك (2) ، ونحو ذلك قال ابن سعيد الأندلسيّ(3).

وروى ابن سعد ، عن ابن عباس ، ومحمد بن جبير بن مطعم ، أنّ قصي بن كلاب أوّل ولد كعب بن لؤي أحدث مُلكاً أطاع له به قومه ، فكان شريف أهل مكة لا ينازع فيها (4) ، فبقصي سميت قريش قريشاً (5) .

والذي يترجح أن قريشاً كانت تعرف بهذا الاسم من قبل قصي ، وقد قال ابن فضل الله العُمَريّ بعد أن حكى تجميع قصي لأشتات قريش : فعلى هذا تكون لفظة قريش اسماً لبني فهر لا له (6) .

ونصوص الشعر لا تدل على أن فهر بن مالك هو قريش ، بل تدلّ على أنه جماع قريش ، كما تدل على أن غالب بن فهر هو جماع عددها وشرفها ، وأن قصياً هو الذي جمّعها فكوّن لها عصبية مستقلة عن كنانة .

(1) فتح الباري 6/ 534 .

(2) الإنباه عن قبائل الرواة صفحة 44 ، وانظر الطبقات لابن سعد 1/ 59 .

(3) نشوة الطرب 1/ 322 .

(4) الطبقات 1/ 58 .

(5) الطبقات 1/ 59 .

(6) مسالك الأبصار صفحة 96 .

فالحاصل أن بني قصي هم أصل قريش ؛ وجؤجؤها ؛ وسِرها ؛ وهامتها ، فهم أمحض مَن قيل له قريش ، قال ابن فندق البيهقيّ في لباب الأنساب : فقريش طلقاء قصي حين ردّ عنهم شابورَ الملك (1). وقد ورث هذا السؤدد عن أبيه كلاب بن مرة الذي قال فيه الشاعر – وقد كان اسم كلاب حكيماً – قال:

حَكِيم بن مُرَّة ساد الورى ... بِبَذْلِ النَوال وكَفِّ الأذى

أباح العشيرة إفضاله ... وجنبها طارقات الردى

وقد أصبح الناس يوماً بمكة وإذا على دار الندوة مكتوب من شعر ابن الزبعرى(2):

أَلْهَى قُصياً عن المجدِ الأساطيرُ ... ورشوةٌ مثل ما تُرْشَى السفاسيرُ

وأكلها اللحمَ بحتاً لا خليطَ له ... وقولها: رحلتْ عيرٌ مضتْ عِيرُ

ثم كان بعد قصي بن كلاب ابنه عبد مناف بن قصي الذي سَنَّ أولادُه الإيلاف الذي جمع قريشاً تحت نظام اقتصاديّ، واجتماعيّ ، وتجاريّ ، وسياسيّ ، وجدّد لها أمر عصبيتها ، وأكدّ التسمية للمجموع ، وزاد من شدة سَورتها في آل عبد مناف ، وجبر الله بهم قلوب قريش ، فكان آلُ عبد مناف أَقْرش قريش ، إذ فيهم كما قلنا تمحضت القرشيّة ، وبهم زادت العصبية ، فكانت لأفعالهم ولأعمالهم وجهاً في تسمية قريش قريشاً ، فكان كلما بدا من رجالات العمود الكريم رجلٌ ، قَوَّى الاسم في المسمى ، وتمحضت فيه سَوْرةُ ذلك الاسم ، باعتبار من تلك الاعتبارات أو بأكثر ،

قال الفضل بن عباس الهاشميّ اللَهَبِيّ:

ولنا نشرها وطيب ثراها ... وبنا سُمّيتْ قريشٌ قريشاً

وقال:

كلُّ قومٍ صيغة من تبرهم ... وبنو عبد مناف من ذهبْ

إنما عبد منافٍ جوهرٌ ... زيَّنَ الجوهر عبد المطلبْ

(1) لباب الأنساب 1/ 322 .

(2) طبقات فحول الشعراء 1/ 235-236 ، انظر تعليق محمود شاكر على البيتين.

وتقدم حكاية مثلٍ لهم (أَقْرَشُ مِن المُجَبِرِيْنَ) فبنو عبد مناف – هاشم ، والمطلب ، وعبد شمس ، ونوفل – هم أوسط قريش أو أوسط بني قصي داراً ونسباً ، فهم واسطة العقد ، وهم المجبرون ، مع أن بنو قصي في ذروة المجد والحسب ، قال الشاعر:

كانت قريشٌ بيضةٌ فتفلَّقتْ ... فالمُحُّ خالصه لعبدِ منافِ

وحكى الزبيريّ أنَّ رَيْطَةَ بنت عبد مناف جَرَّتْ لقريشٍ حلفَ الأحابيش ، إذ قد ولدت هلال بن معيط بن عامر بن عوف بن الحارث بن عبد مناف بن كنانة (1) .

وحكى البلاذريّ أنّ عبد مناف وعمرو بن هلال بن معيط الكنانيّ عقدا حلف الأحابيش ، والأحابيش بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وبنو المصطلق من خزاعة ، وبنو الهون بن خزيمة ، وكانوا مع قريش (2) ، فقال الشاعر:

إنَّ عمراً وإنَّ عبدَ مناف ... جَعَلا الحِلْفَ بيننا أسباباً

(1) نسب قريش صفحة 15 ، والتحبيش والتقريش والتحميس كلها أحلاف تتعلق بقريش ، فالتقريش تجمع قريش وهم بنو النضر، والتحميس خاص بقريش وبمن ولدته قريش من غيرها ، وهو التشدد في الدين ، كمثل أن مجد بنت تيم الأدرم بن غالب بن فهر القرشية حمستْ ولد ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، والتحبيش حلف قتال .

(2) أنساب الأشراف 1/ 52 .

ثم إنَّ الله تعالى خصَّ من بني عبد مناف ، هاشم بن عبد مناف أحد رجالات العمود الشريف ، واختاره تعالى لتتمحّض فيه القرشية ، وليكون له الفضل على باقي قريش ، فهو أول مَن سنَّ الإيلاف من بني عبد مناف ، وهو الذي أطعم قريشاً وهشم لها الثريد ، فهو خيرٌ مِن خيرٍ ، فجدّد لقريش عصبيتها ، فعُدّ مجدداً من مجددي قريش كحال بقية رجالات العمود ، كما محّض القرشية لآله ؛ فكانوا أعزّ قريش وأوسطها داراً ونسباً ، ولذلك قال العباس

بن عبد المطلب عمّ رسول الله : أمّا نحن شجرة ، قريشٌ أفنائها ، قال في اللسان كما سبق أن مرَّ : والمقرشة ، السنة المَحْل الشديدة ، لأنّ الناس عند المحل يجتمعون فتنضم حواشيهم وقواصيهم ، قال الشاعر:

مقرشات الزمن المحذور

وقال الشاعر:

عمرو العلا هَشَمَ الثريدَ لقومِه ... ورجالُ مكةَ مسنتون عجافا

وقال ابن غانم القرشيّ العدويّ:

يا أيُّها الرجلُ المحوِّل رحلَهُ ... هلاَّ نزلتَ بآلِ عبدِ منافِ

هبلتْكَ أُمُّكَ لو نزلتَ برحلهم ... منعوكَ من فقرٍ ومن إقرافِ

الآخذين العهد في إيلافهم ... والراحلين برحلة الإيلافِ

وقال أبو طالب بن عبد المطلب في لاميته المشهورة التي نافح فيها عن النبيء:

ونحنُ الصميمُ من ذؤابةِ هاشم ... وآل قصي في الخطوب الأوائلِ

وهاشم هو الذي جمع كل بني أبٍ على رحلتين للتجارة ، فما ربح الغنيُ قَسَّمه بينه وبين الفقير ، حتى كان فقيرهم كغنيهم ، فجاء الإسلام وهم على ذلك ، فلم يكن بنو أبٍ أكثر مالاً ولا أعزّ من قريش (1) ، قال القرشيّ:

الخالطين فقيرهم بغنيهم ... حتى يكون فقيرهم كالكافي

(1) أنظر مثلاً تفسير الفخر الرازي 32/ 100 ، زاد المسير 9/ 242 .

ثم قام بأمر قريش من بعده ابنه عبدُ المطلب بن هاشم بن عبد مناف الذي كان سيّد مكة بلا منازع ، وهو الذي حفر زمزم وأظهرها ، واستنبط مائها وجصّصها ، فاجتمعت قريشٌ إليها واستقتْ منها ، وهو الذي كان له من الفضل ما كان يوم الفيل ، كما قال ابن فندق البيهقيّ : كانت قريش عتقاء عبد المطلب حين ردَّ اللهُ عنهم أبرهة صاحب الفيل بدعاء عبد المطلب ، وردَّ الله عنهم الفيل وأصحاب الفيل لأجل أن يظلوا على إيلافهم وتجمعهم الذي سنَّتْه لهم هاشمُ ، ولذلك قرأ بعض القرّاء سورة الفيل وسورة قريش ، سورةً واحدة ليس بينهما فاصلة ، فبلغ عبد المطلب مِن العزّ والشرف مبلغه ، قال القرشيّ:

هم ملئوا البطحاء مجداً وسؤدداً ... وهم تركوا رأي السفاهةِ والهجرِ

ثم كان من أمر أولاد عبد المطلب من بعده ما كان ، فقد قال الزبير بن عبد المطلب بن هاشم في حلف الفضول:

حَلَفتُ لنعقدنَّ حِلْفاً عليهم ... وإنْ كُنَّا جميعاً أهل دارِ

نُسَميه الفضول إذا عقدنا ... يعز به الغريب لدى الجِوارِ

ويعلم من حوالي البيت أنَّا ... أُباة الضيم نهجر كل عارِ

فهذه الأبيات تحكي بعض فضائل قريش التي ذكروها في مادة قريش ، وقد قيلت في حلف الفضول ، فشحطتْ بنو هاشم قريشاً كما شطحتْ قريشٌ العربَ قاطبةً ، وهذه كانت قصة هذا البيت النبيل الذي هو سِرُّ قريش ، وقريش سِرُّ العرب ، والعربُ سِرُّ البشريّة ، والحاصل ، أن تلك الأقوال لا تعدو أن تكون اختلافاً لفظياً ، وقد انتظمت جميعها لهذه الفذلكة التي حكيناها ، ولو ضُبِطتْ أقوالُ القدماء التي رَاَمَ الناسُ تكثيرها وضبطت عباراتهم لزال الخلافُ ، وإن قلتُ لك : إنّ كل واحدٍ من رجالات العمود النبيل يصدق فيه أن يقال فيه قريش لم أكن مُكَذَّباً ، غير أني لو فعلتُ لعدّ مني شذوذاً ، وللعَادّ وجهٌ من الصدق ، ولنا وجهٌ من الصدق .

❋

ولقائلٍ أن يقول : إنّ قريشاً هم بنو فهر بن مالك ، أَلاَ ترى إلى بني محارب وبني شيبان وغيرهما من قريش الظواهر ، فإنّ الغالب عليهم أن يقال لهم بنو فهر وآل فهر ، فهم وإن كانوا معدودين من قريش دون مخالف إلاّ أنهم بقوا على الأصل وهو العدم ، إذ إن بعض الاعتبارات التي قيلت في سبب التسمية لا تصدق على الظواهر كصدقها على البطاح ، كالاتجار والتجمع ، فلما لم تصدق عليهم فقد ظلوا على ذاك الأصل أي الانتساب إلى فهر ، فعلم من ذلك أن فهر هو أصل قريش، إذ لو كانت قريش هي كل من ولد النضر لاستحال هذا.

والرأيُ على خلاف هذا الظن ، إذ إن الاتجار لا يصدق على هؤلاء الذين كانوا في ظاهر مكة ، لكون البداوة هي الغالبة في معيشتهم ، فهم على نقيض قريش البِطاح ، فالظواهر كانوا أهل ضِرعٍ لا أهل تجارة ، وأما الاجتماع فإنهم وإن كانوا مجتمعين حوالي مكة ، موالين لبني عمومتهم البطاح ، إلاّ أنهم كما أسلفنا كانوا غير مستقرين بمكان ، غير أنهم لا يُبعِدون النجعة ، فالاجتماع يصدق في البطاح ، وقصي بن كلاب كوَّن للبطاح وللظواهر عَصَبِيَّة وحَمِيَّة لأبٍ هو جامع لكليهما ، فكانت هذه الحمية تقريشاً روحياً معنوياً لأصحاب الحضارتين ؛ وأهل النَّمطيْن ، الظواهر والبواطن ، أما التقريش الحسيّ فقد كان للبطاح دون الظواهر ، وإنما غلب فهر على الظواهر بسبب أنهم كانوا بادية لا يطمأنون كثيراً للجديد ، ويستمسكون جداً بالقديم ، لا سيما وأن كلمة قريش لم ترسخ بعد في أذهان العرب ، ولما تألفة الألسنة بعد ، وإنما ألفوه حين عظم قدر آل عبد مناف بن قصي ، حين سنّوا سنة الإيلاف ، حتى لقد ظلّ

بعض العرب تلهج ألسنتهم بالقديم إلى حين أشرقت شمس الإسلام ، يقول حسان بن ثابت:

إنّ الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنةً للناس تتبع

فقرب الديار ، وقرب النسب ، وقرب الطباع ، كل ذلك جعل انفكاك الظواهر عن البطاح في حكم المستحيل .

ثم إن قريشاً الظواهر كانوا يُغِيرون على غيرهم كعادة الأعراب ، وقد مرّ بنا في بعض الاعتبارات أن قريش لا تغير ولا يغار عليها ، وقد كان ضرار بن الخطاب الفهري ممن يغير ، وكان جده عمرو بن حبيب الفهري قد غزا بكراً ، وكان يقال له آكل السقب ، وقد كانت محارب بن فهر قد غزت بني سليم وبني كنانة ، وكان منهم من يأخذ المرباع ، وقد كان يقال لهم ولبني معيص بن عامر بن لؤي ، الأجربان ، من شدّة البأس ، ولأنهما كانا يلحقان الشرّ بأعدائهما كما يُلحق الجَرَبُ الشرّ بمن يصيبه .

وقيل للظواهر قريشاً أسوةً بالبطاح لكونهما ينتسبان إلى فهر بن مالك بن النضر ، ولم يكُ لهم الشذوذ عن البطاح لا سيما وأن البيت والعدد في البطاح ، نعم وإن كانت بعض الاعتبارات لا تصدق على الظواهر ، كيف وفي الشذوذ ما يوحي بالذلّ والعزلة والمهانة ، فلم يكُ حال الظواهر مع البواطن إلاّ كحال عامة قريش من بني قصي بن كلاب ، ومثل حال عامة آل قصي بن كلاب من آل هاشم بن عبد مناف ، إذ هم أقرش قريش ، وغُرّةَ فضلها ، ومحتد فخرها.

*

أسلفتُ في عجل وقلتُ : إنّ الله عز وجل قد عصم مكة بقريش ، وعصم قريشاً بمكة كلَّ ذلك حتى تظلّ قريش على إيلافها ، على تقرّشها وتجمّعها ، وجعل قريشاً على نمط ليس على أنماط غيرها ، فالقول : إنّ التقريش هو التجمع وإنه لم تسم قريش قريشاً إلاّ لأجل ذلك التجمع على قصي بن كلاب وفي مكة يؤيده موضوع سورتي الفيل وقريش من القرآن العظيم ، حتى أن سورة الفيل وسورة قريش عُدّتَا في بعض المصاحف سورةً واحدةً ، أي أنّ الله إنما أهلك أصحاب الفيل لأجل إيلاف قريش ، بمعنى ليظل ويبقى ويستمر تقرُّشُها لحين البعثة ، حين نزل النبأ على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم ، قال الفخرُ الرازيّ: شَرَّفَ اللهُ محمداً في سورة قريش بأنه راعى مصلحة أسلافه من ثلاثة أوجه ، أولها: جعلهم مؤتلفين متوافقين ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ ﴾ ، وثانيها : ﴿ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ ، وثالثها : أنه ﴿ آمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ (1) ، فظلت قريشٌ على هذا الوضع حتى حين بعثة النبي محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم ، وتفرّقت في الأمصار لمصالح الدين أو الدنيا أو لهما معاً ، ولم يبق لها غير أمانُ الله الذي جعل الله سورته في الهاشميين

كافة وإنْ خصَّ منهم الأسباط بفضل أمان ، وظنّت قريش حينما خرجت لملاقات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم يوم بدر أن لا غالب لها وأن لن يجرؤ أحدٌ على مقاتلتها ، وأنّ الأمان يكون معها ، فخرج القوم من ديارهم بطراً ورئآء الناس ، فخرجوا لحتف الأنوف ، فكان النصر والأمان للرسول وللذين آمنوا معه .

(1) تفسير الفخر الرازي 32/ 112 .

ويؤيد كذلك موضوع سورتي الفيل وقريش اعتبار المعتَبِر دابة البحر في التسمية ، فهم لعظمهم بين الناس قد أمنوا مكرهم والإغارة عليهم ، فيرتحلون للتجارة صيفاً وشتاءاً ثم يرجعون إلى مكة آمنين سالمين لم يمسسهم سوءٌ ، فكان العرب إذا ما رأوا عير قريش وهي تمرّ بأرضهم قالوا : قدمتْ عير قريش ، فيشبهونهم بالقِرْشِ وهو يعوم في تجبرٍ مع اطمئنانه وثبات جنانه ، كما قال ضرار بن الخطاب الفهري:

والجُرْدُ تَرْفلُ بالأبطالِ شازبةً ... كأنها حِدَأٌ في سيرِها تُؤَدُ

حتى لقد كان اللصوص وقطّاع السبيل ينكصون مع عِير قريش على أعقابهم ، خلاف ما دأبوا عليه مع غير قريش ، هذا في سفرها أمّا في حضرها فكما قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ ﴾ ، قال بعض المفسرين: هذا معنى سورة قريش (1) .

(1) تفسير ابن كثير 3/ 679 ، تفسير الكلبيّ 1/ 60 ، 4/ 219 .

فهم لحال أمنهم في حلّهم وترحالهم كانوا قد تقرشوا عن الغارات ، ولعل بين الاعتبارات عموم من وجه وخصوص من وجه آخر ، أو لعل بينها تلازم ، ولعل أصح الاعتبارات ما وافق معنى هاتين السورتين ، وهو ما يحكى حالهم من الأمن والغنى والقوة والعزّة والتنزه عن مدانس الأمور ، فالله قد جعل مكة آمنة بأمرٍ شرعيّ وآخر كونيّ ، فكونها حرماً آمناً قد أحدق بها العذاب ، كون ذلك أمراً شرعيّاً ، وأما الكونيّ فبطبيعة أرضها ، حتى ضربوا بشعابها الأمثال ، وهو سبحانه قد جعل قريشاً آمنة بالأمرين معاً ، فاجتمع الأمن كله لقريش ، فقد كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم منهم ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، قال ابن عباس: كان فيهم أمانان ، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم والاستغفار ، فذهب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم وبقي الاستغفار ، صدق ابن عباس ، ولكن الله جعل آل محمد/ أهل البيت في مقام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّم ،

فجعلهم أمان لأهل الأرض كما وردت ذلك في الأحاديث الصحاح ، والأمان الآخر الذي لقريش فهو موضوع سورتها من القرآن العظيم ، قال الراغب الأصفهانيّ : الإلف ، اجتماعٌ مع التئام ، يقال الّفتُ بينهم ، ومنهم الألفة ، ويقال للمألوفِ إلفٌ وآلِفٌ ، قال الله تعالى : ﴿ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ والمؤلف ما جمع من أجزاء مختلفة ورتب ترتيباً قُدّم فيه ما حقه أن يقدم ، وأخر فيه ما حقه أن يؤخر (1) ، قال البقاعيّ : والتعبير بقريش دون قومك أو الحُمس مثلاً ونحوه دالٌ على أنهم يغلبون الناس أجمع بقوة كما يدل عليه الاسم ، وبغير قوّة كما دلّ عليه ما فعل لأجلهم من قصة الفيل ، والتعبير بهذا الاسم لمدحهم (2) .

*

(1) المفردات 20/ 21 .

(2) نظم الدرر 8/ 533 ـ 534 .

وليس في مكة شيء من زينة الدنيا ، وجمال المنظر ، حتى لم تفتأ قريش تفارقها ، ولكن الله – عز وجل – مكّن لقريش بمكة وأغراها بها كيما تستقر بها فلا تنفك عنها ، فألزمها البيت ، واستنبط لها الماء العذب ، وأحاطها بالجبال من كل ناحية عصمةً لها ، وساق إليها ثمرات كل شيء ، وثبطهم عن غزو غيرهم ، وكرّه لغيرهم أن يغزوهم ، وألقى الهيبة منهم في قلوب الناس ، كل هذه العصم لأجل أن تظل قريش على تجمعها ، ولأمرٍ ما!

قال أبو عثمان الجاحظ عند قول الشاعر عن مكة وأهلها:

وليس بها مَشْتىً ؛ ولا متصيِّف ... ولا كجؤاثا ؛ ماؤُها يتفجَّرُ

ولا مرتعٌ للعين ؛ أو متقنَّص ... ولكنَّ تَجراً ، والتِّجارة تُحقَرُ

يقول : ليس في الغلبة على رغبة ، ولولا ذلك لغزاها أهلُ اليمن وغيرهم ، وليس بها مشتىً ولا متصيف لأنهم يتبرّدون بالطائف ويتدفَّوْن بجدّة، وجؤاثا عين بالبحرين، وليس بمكة شيء يداني ذلك، وليس بها متنزّهات، وصيدها حرام، وإنما تُجَّار، والتُجَّار يُحقَرون.. (1)

وبيَّن الجاحظ في بعض رسائله بعض ما باينت به قريش غيرها من العرب إذ قال: ومن العجب أنهم مع تركهم للغزو ؛ كانوا أعزّ وأمثل ، مثل أيام الفِجَّار وذات كهف ، (2) ومن العجب أنّ كسبهم لما قلّ من قِبَلِ تركهم الغزو ، ومالوا إلى الإيلاف والجهاد ، لم يعترهم مِن بُخل التُّجار قليلٌ ولا كثيرٌ ، والبخلُ خِلقةٌ في الطباع ، فأعطوا الشعراء كما يُعطي الملوك ، وقَرَوا الأضياف ، ووصلوا الأرحام ، وقاموا بنوائب زُوَّار البيت ، فكان أحدهم يحيسُ الحيسة في

الأنطاع ؛ فيأكل منها القائم ؛ والقاعد ؛ والراجل ؛ والراكب ، وأطعموا بدل الحيس الفالوذج، ألا ترى أميّة بن أبي الصلت الثقفيّ يقول ويذكر عبد الله بن جدعان:

له داع بمكّةَ مُشمعلٌّ ... وآخر فوق دارته ينادي

إلى ردح من الشيزى مِلاءٍ ... لبابُ البُرِّ يلبك بالشهادِ

(1) رسالة فخر السودان على البيضان 1/ 187ـ188 بتحقيق هارون .

(2) رسائل الجاحظ 4/ 115 بتحقيق هارون .

ولقد مدحتهم الشعراءُ كما يُمدح الملوك ، ومدحتهم الفرسان والأشراف وأخذوا جوائزهم، ومن خصائصهم أنهم لم يشاركوا العرب والأعراب في شيء من جفائهم وغلظ شهواتهم ، وكانوا لا يأكلون الضباب ولا شيئاً من الحشرات . (1)

وقال : وقد تعجّب الناس من ثبات قريش ، وجزالة عطاياهم ، واحتمالهم المؤن الغلاظ في دوام كسبهم من التجارة، وقد علموا أنّ البخل والبَصَر في الطَّفيف مقرونٌ في التجارة ، وذلك خُلقٌ من أخلاقهم، وعلى ذلك شاهدُ أهل التربيح والتكسّب والتدنيق .. وقريش من بين جميع العرب دانوا بالتحمس ، وتشدّدوا في الدين ، فتركوا الغزو ، ولم تبق مكسبة سوى التجارة ، فضربوا في البلاد إلى قيصر الروم ، وإلى النجاشيّ بالحبشة ، وإلى المقوقس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء ، وبانوا بالديانة والتحمس ، فحمسوا بني عامر بن صعصعة ، وحمّسوا الحارث بن كعب ، فكانوا – وإن كانوا حُمْساً – لا يتركون الغزو والسَّبي ووطء النساء ، وأخذ الأموال ، فكانت نجدتهم – وإن كان أنقص – فإنها على حال النجدة ، ولهم في ذلك بقية .

وتركت قريش الغزو بَتَّةَ ، فكانوا – مع طول ترك الغزو – إذا غزوا كالأُسود على براثنها ، مع الرأي الأصيل ، والبصيرة النافذة .

أفليس من العجب أن تبقى نجدتهم ، وتثبت بسالتهم ، ثم يعلون الأنجاد والأجواد ، ويفرعون الشجعان؟! وهاتان الأعجوبتان بينتان . (2)

(1) رسائل الجاحظ 4/ 117 بتحقيق هارون .

(2) رسائل الجاحظ 110ـ111 ، و 4/ 126ـ127 ، 3/ 46 بتحقيق هارون .

وقال : وكانت العرب قاطبة ترد مكّة في أيام الموسم ، وترد أسواق عكاظ وذا المجاز ، وتقيم هناك الأيام الطّوال ، فَتُعَرِّفُ قريشٌ ، لاجتماع الأخلاق لهم و الشمائل ، والألفاظ ، والعقول ، والأحلام ، وهي وادعة وذلك قائمٌ لها ، راهنٌ عندها في كل عام ، تتملّك عليهم فيقتسمونهم ، فتكون غطفان للميرة ، وبنو عامر لكذا ، وتميم لكذا ، تغلبها المناسك وتقوم بجميع شأنها . (1)

وحاصل الكلام أنه لما كانت قريش حاضرة ، أراد الله لها أن تبقى كذلك وأن تظل لها معها العصبية التي هي من نوع عصبية البدو والأعراب ، وأن تأتلف شمائلها ، وتتحد نخوتها إلى حين البعثة ، ولأجل ذلك بدَّد الله شمل أصحاب الفيل ، في حين أن واقعة الفيل كانت ذات أثر قوي في تجمع قريش ، وفي التسامح بين قبائلها ، ونسيان الأحقاد المتولدة في أحقاب ما قبل الفيل ، فاجتمعت لعبد المطلب ، وغدت رحلتها تتجلى في أروع صورة بعد الفيل ، ولولا تلك الظروف كلها لجرَّ التحضر على قريش سننه بما فيها من سلبيات ، ولجر التبدي عليها سننه وما فيها من سلبيات، فكانت قريش الذين هم آل الله – سبحانه وتعالى – بَيْنَ بَيْنَ ، وخلال الحالين ، من غير تذبذب ولا انفصام لشخصيتها ولا اضطراب ، وإنما هي المعيشة التي أقرها الإسلام بعد للأمة جمعاء .

(1) رسائل الجاحظ 4/ 118 بتحقيق هارون ، وقوله تعرّف يعني تنصّب عريفة على القبائل وتسود عليها .

أخيراً ، فإنّما أراد الله تعالى من تجمّع قريش ومن إيلافها أنه حين يبعث محمداً يبعثه في عِزّةٍ من قومه ، وقوة ، وغلبة ، ومنعة ، وفكر معتدل ، لا أن يبعث منهم رسولاً وهم في حال ذُلّ أو شتات وضعف ، وإلاّ فمَن يتبعُ الضعيفَ ؟ ، فالناس إنما تتبع القوي الغالب ، وهذه سنة الله في الذين اصطفاهم ، وهي سنته في الناس بعد لوط عليه السلام ، وكان هذا التجمع في عهد قصي ثم في عهد هاشم لأن الله أراد لهم العزلة قبل عهد هذين السيديْن ، فعزلهم عن غيرهم ، لا يخالطهم أحد من غيرهم ، فكانوا بادية حول مكة مع كنانة وفي حال عزّ ووجاهة وَطّدَتْ لقصي مراده ، حتى إذا اقترب موعد البعثة الكريمة ، جمعهم الله ، وسخّر لهم سبل المعاش ، فجعلهم بعدُ حاضرةً لا يفارقون الحرم، فكانوا أتجر العرب ، وأفقههم في البيع والشراء والاقتصاد ، وفي التعامل مع العرب والعجم في الدين والدنيا، وإنما سنّ لهم التجارة إظهاراً لنعمته عليهم من القوة والعزة والأمن ، وهذا الذي أبعدهم عن الشعر حتى كانوا أضعف العرب شِعْراً ، وأقلهم له إنتاجاً ، يستجيدونه ولا يحسنون لفظه ، حتى إنهم لما سمعوا الوحي وقالوا : هذا شعر ، وهم يعلمون أنه ليس بشعرٍ ، فعجبت العربُ قاطبة من القرآن في زمن كانت قريش تُعَيَّرُ بسوء الصناعة الشعرية ، ذلك مع الرأي الأصيل ، والبصيرة النافذة ، فأَكْبَتَ اللهُ كل معاندٍ قد أصرّ على أنه شعر ، ولات في قريش

شعر ، أو أصرّ على أنه كهنٌ ، ولات في قريش كهانة ، فليس إذن هو إلاّ وحيٌ من عند الله سبحانه وتعالى، وهذه قصةُ قريش مع الشعر ، فقد كانت مكةُ التي هي أفصح العرب وأبينهم لا تنتج شعراً ، وإنما انتجت نثراً له لحنٌ لا كلحن الشعر ولا كموسيقاه ، إنه لحنٌ معجزٌلم تسطعه العرب ولم تطقه ، وجمعهم الله بمكة لأجل أن يتخيروا من لغات ما يستحسنونه وذلك لما يوافونهم في المواسم ، وتراهم أبعد الناس عن المستقبح أو المستثقل من الألفاظ

وأنزههم ، فهم يجمعون من لغات العرب ، ويؤلفون بينها ، ويفتشون عن محاسن الألفاظ واللغات واللهجات ، ويأخذون من كل ذلك أول بأول ، وكل ذلك من معاني التقريش ، فكانت لغتهم التي تواطئوا عليها أوسع اللغات وأهذبها وأفصحها ، وكانوا هم أعلم العرب باشتقاق الألفاظ وتفننوا في علم الاشتقاق ، فكانت لغة قريش أحرى بأن يخاطب الله بها الآدميين ، وكانت لغتهم خليقة لأن يفهمها كلُّ أحدٍ .

فالذي تحرر إذن أن هذه التسمية أتت لا لمجرد اعتبار مما ذكرت ، بل إن كل ذلك مجتمع هو معتبر ، فهم لما تميزوا به عن سائر العرب من المحاسن والمكارم والفضائل والخصائص كان يقال لهم أهل الله وآل الله ، فكان من ذلك أنهم كانوا مجاورين بيت الله تبارك اسمه ، غير منفكين عن حرمه ، فتفردوا بالمآثر القرشية وبالخصائص الحياتية والاجتماعية ، وكانوا أظهر العرب على إرث إبراهيم عليه السلام من قِرَى الضيف ، ورفد الحاج والمعتمر ، والقيام بما يصلحهم ، وتعظيم الحرم ، وصيانته عن البغي فيه والإلحاد ، وقمع الظالم ومنع المظلوم ، وهم الذين صبروا على لأواء مكة وشدّتها ، وخشونة عيشها ، وكانوا كما قلنا آنفاً قِبلة العرب ، يُؤتَوْن من كل فجٍّ عميق ، فترد عليهم الأخلاق ، والعقول ، والآداب ، والألسنة ، واللغات ، والعادات ، والصور ، والشمائل ، عفواً بلا كلفةٍ ، ولا غرم ، ولا عزمٍ ، ولا حيلة ، فيشاهدون ما لم تشاهده قبيلة ، وليس من شاهد الجميع كمن شاهد البعض ، ولا المجرب كالغمر ، ولا الأريب كالعتل ، فكثرت الخواطر ، واتسع السماع ، وانفسحت الصدور بالغرائب التي تتخذ ، والأعاجيب التي تحفظ ، مع أنها صادفت قريحة جيدة ، وطينةً كريمةً ، فثبتت تلك الأمور في صدورهم وأُضْمِرتْ ، وتزاوجتْ فتناتجتْ وتوالدتْ ، فلذلك صاروا أدهى العرب ، وأحسنهم بياناً ، وأعقل البرية ، وأفضلها رأياً .

***

**

*